كنوز جزيرة السنائين

(للشباب والكبار)

قصة تعليمية في الفكر الديني والعقدي
وفي التربية الاجتماعية السياسية

تأليف
أ. د. عبد الحميد أحمد أبو سليمان

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

كافة حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة
للناشر
دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
لصاحبها
عبد القادر محمود البكار

الطبعة الأولى
١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشئون الفنية .

أبو سليمان ، عبد الحميد أحمد .
كنوز جزيرة البنائين : للشباب والكبار : قصة تعليمية في الفكر الديني والعقدي وفي التربية الاجتماعية السياسية / تأليف عبد الحميد أحمد أبو سليمان . - ط١ . - القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، ٢٠٠٦م .
١٨٤ ص ؛ ١٢ × ٢٠سم .
تدمك ٤ ٣٨٢ ٣٤٢ ٩٧٧
١ - القصص العربية .
٨١٣

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عشر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية
الإدارة : القاهرة : ١٩ شارع عمر لطفي موازٍ لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشربيني - مدينة نصر
هاتف : ٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

قائمة المحتويات

مقدمة ٥
ابن بطوطة ضيف الجزيرة ٧
صواعق السحب السوداء ٢٤
عند الفجر يصدح البلبل الطليق ٣٣
الحمامة الحمقاء تلتقط الحبَّ من شِبَاك الصياد ٤٧
العزة والفلاح في حبِّ اللَّه ٥٤
يوم أمطرت السماء ذهبًا ٧٢
لا جائزة للخامل والظالم ٨٩
البشر أغبى من البقر ١١١
الخروف الأحمق يطلب العشب من يد الجزار ١٢٦
شراع الرحالة يقصد الجنوب ١٦١
الملحق التوضيحي الأول : المفهوم القرآني :
« أمة يدعون إلى الخير » ١٦٤
الملحق التوضيحي الثاني : مفهوم القانون :
إقليمية القانون ، وشخصية القانون ١٧٧

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

obeikandl.com

مقدمة

أيها القراء الأعزاء :

القصة التي بين أيديكم هي قصةٌ يدور حوارها وأحداثها على لسان الأديب الحكيم الفيلسوف « بيدبا » صاحب الكتاب القصصي الشهير « كليلة ودمنة » ، وهي امتدادٌ للقصة السابقة « جزيرة البنائين » ، والقصد من هذه القصة هو طرح مناقشة فكرية لما ورد في تلك القصة من مبادئ ومفاهيم ورؤية كونية إسلامية حضارية للإنسان المعاصر ، تعيد صياغة مفاهيم الأمة ورؤيتها الكونية ، وصياغتها على ضوء الرؤية الكلية القرآنية (اللازمانية واللامكانية) ، وعلى ضوء دروس تطبيقات العهد النبوي والسنَّة النبوية ، وتجاربِ وعِبَر الأمة الإسلامية عَبْرَ تاريخها الثري الطويل .

أيها القراء الأعزاء :

إن من الواضح أنه دون مراجعة جادة لرؤية الأمة ، ومنهج فكرها ، وأساليب تربية أجيالها ، فإنه لا يمكن للأمة في هذا العصر أن تستعيد عافيتَها ودورَها الهادي الرائد في بناء الإنسانية ومسيرتها الحضارية .

ولهذا ؛ فإننا نعتقد أن هذه القصة وحواراتها ونقاشاتها –

فيما نرى - أمرٌ ضروري لكل شابٍ مسلمٍ وشابةٍ مسلمةٍ ، ولكل أبٍّ مسلمٍ وأمٍّ مسلمةٍ ، ولكل مثقفٍ مسلمٍ ومثقفةٍ مسلمةٍ ؛ لأن من الصعب - إلَّا على أصحاب الاختصاص ؛ بسبب تشعبِ المعرفة ، وكثرة المشاغل والمسؤليات على الإنسان المعاصر - أن يلمَّ الشباب وعامة المثقفين بكل القضايا التي تتعرض لها القصة وأطروحاتها المعقدة في مصادرها الدينية والاجتماعية والفلسفية والعلمية ؛ لذلك كان القصد من هذه القصة أن تقدم للقارئ كلَّ ذلك في سِفْرٍ واحدٍ ، وبأسلوبٍ قصصي مبسَّطٍ ميسَّرٍ .

لذلك نأمل أن يحرص شبابنا وشاباتنا ، والآباء والأمهات ، والمثقفون والمثقفات ؛ على قراءتها بعناية وأناة ، ومناقشة قضاياها وأفكارها ؛ لتعميق الأفكار وإثرائها ، من أجل مستقبل أفضلٍ ، بإذن اللَّه .

مع أطيب التمنيات وخالص الدعاء بالتوفيق والرشاد .

١

ابن بطوطة ضيف الجزيرة

تتناول هذه القصة المفقودة من قصص الحكيم بيدبا ما سمعه بيدبا من أخبار جزيرة البنائين ، من الحكيم الرحالة المسلم الشهير ابن بطوطة ، وما دار بينهما من حديث وحوار ؛ يستهدف المفكرين والمربين ، ويستهدف الشباب والآباء والأمهات ، كما يستهدف المثقفين والإصلاحيين ، بأسلوب قصصي يجعل التعامل مع ما تضمنته الحوارات من القضايا والمفاهيم سهلًا ميسرًا لإدراك ما فيها من ثمين الحكمة والنصح والتبصير في هذه المجالات التي تهم شعوب الأمة ؛ لتتحسس طريقها نحو النهضة والإصلاح والعزة بإذن اللَّه .

يقول الحكيم بيدبا : لقد أخبرني الشيخ الرحالة ابن بطوطة بالكثير العجيب من أخبار جزيرة البنائين التي ركب أمواج البحار ، وقطع الفيافي والقفار ؛ ليراها ، ويحظى بزيارتها ، ويتعرف بنفسه على أحوالها ، ويقف على الأسباب التي جعلتها أكثر رخاءً وازدهارًا وأمنًا وسلامًا من كثير سواها ، وكيف أن ابن بطوطة بعد زيارته تلك الجزيرة لم يكن يمل رواية أخبارها وما شاهده فيها ؛ من حسن تربية

أبناء بلادها ودماثتهم وكريم معاملتهم ، وما كانوا يتمتعون به من الجد والإخلاص والصدق في التعامل والعمل ، وما كانوا يتمتعون به من حسن الإخاء والمودة والتكافل ، وأن مرد ذلك كان يرجع إلى عنايتهم بأمر الأمومة وبأمر الأسرة ، وحسن ثقافة الوالدين ، ورعايتهم لأبنائهم ، وغرس كريم القيم والأخلاق والمبادئ في نفوسهم منذ نعومة أظفارهم ، ومن أهم تلك الصفات التي هي أساس أخلاقيات الفرد : رعاية الأسرة ، وحفظ كرامة الإنسان ، ويأتي في مقدمتها كرامة الأمومة والأنوثة والإنجاب ، والأنوثة عندهم ليست بضاعة رخيصة للتجارة ؛ بل هي جلال الأمومة ، ومنبع الكرامة ، ومهد المجتمع .

يقول بيدبا : من ألطف ما سمعت من الشيخ ابن بطوطة في شؤون التربية ؛ ما ذكره عن أمهات وادي جزيرة البنَّائين ، وكيف كان الحبُّ ، وإثارة الرغبة عند الطفل ، وسيلةً أساسية في ثقافتهم التربوية وتنشئة أبنائهم .

ويضرب الشيخ ابن بطوطة مثالًا لهذا الأسلوب ، فيقول : ينمو في جبال هذه الجزيرة شجر الرُّمان ، وبسبب جودة تربة هذه الجبال وروعة جوها وهوائها العليل ؛ فقد كانت أشجار الرمان لديهم تعطي أحلى ثمر وأطيبه طعمًا ومذاقًا .

ولأن بقع ثمر الرمان وحباته من أكثر الألوان ثباتًا على الثياب وأثاث المنازل ، ولصعوبة الحفاظ على حباته الكثيرة

التي يسهل تناثرها على الثياب وعلى فرش المجالس وأثاثها ، خاصةً حين يتناوله الصغار والأطفال .

وكانت الأمهات بحكم ثقافتهن التربوية الرفيعة يدركْنَ أن إصدار الأوامر إلى الأطفال حرصًا منه على عدم وقوع شيء من حبوب الرمان على ثيابهم ، أو على أثاث المنزل لن يجدي نفعًا ؛ وذلك لصعوبة تذكر الطفل للأوامر واتباعها ، ولسرعة تشتت انتباهه فيما يفعله ويزاوله من الأعمال والنشاطات .

لذلك لجأت الأمهات إلى حيلة تثير انتباه الطفل ، وتثير رغبته في أداء المطلوب ، دون أي إحساس بالأمر أو الإكراه .

وكانت هذه الحيلة أن تذكر الأمهات للأطفال أن في كل رمانة حبة واحدة من الجنة ، وأن من يحرص على أكل كلِّ حبات الرمان لا يفوته منها شيء فقد أكل حبة من حبات رمان الجنة .

وهكذا تثير الأمهات الرغبة في نفوس أطفالهن لأكل حبات ثمرة الرمان كاملة بكل الحرص على عدم التفريط في أية حبةٍ من حبات الرمان .

لقد بنيت هذه الحيلة اللطيفة البريئة على إثارة مفهوم الحب والرغبة بكل إيجابياتها ؛ لدفع الطفل إلى الإقبال على ما يطلب منه ويرجى له ، وهو مفهوم أساسٌ في

أساليب التربية الإبداعية الناجحة التي يجب أن يتفهمها الآباء والأمهات في تربية أبنائهم وبناتهم بأسلوب ناجح فعَّال .

يقول بيدبا : وسألت الشيخ ابن بطوطة عن مثالٍ لما رأى وشاهد من أمثلة التربية السيئة ؛ وذلك عن طريق إثارة مشاعر الخوف والرهبة والتهيُّب في نفوس الأطفال .

قال الشيخ ابن بطوطة : التربية السيئة يا بيدبا هي التربية التي تقوم على القهر والأمر والترهيب ، والتي تغرس في نفس الطفل مشاعر التهيُّب والخوف والكره ، وتنتهي به إلى خلُقِ العناد والرفض والمشاكسة ، أو إلى خلق الجبن والتهيُّب ومشاعر الخضوع والمذلة ، وإلى خلق الكذب والنفاق ؛ حسب ما تدعو إليه طبيعة العلاقة بين الطفل والمربي ، وطبيعة الأساليب السيئة التي يلجأ إليها المربي في تربية الطفل والتعامل معه .

وعلى عكس ما سبق أن ذكره لي من مثال أمهات وادي جزيرة البنائين المسالمات الطيبات فقد أورد لي مثالًا عن التربية السيئة ؛ وذلك بإثارة مشاعر الخوف والرهبة في نفس الطفل .

قال الشيخ : أنت تعلم يا بيدبا أن الأمن في العصور الماضية كان ، وما يزال في كثير من البلاد ، وحتى اليوم ،

مفقودٌ ، وتخشى الأمهات على أطفالهن من الخروج من المنازل بعد غروب الشمس ؛ لما يمكن أن ينالهم من الأذى من مرضى النفوس وشرار القوم ؛ ولمواجهة هذه الحالة فقد اخترعت الأمهات الجاهلات حيلةً مرعبة تثير الخوف والهلع في نفوس صغارهن ؛ حتى لا يخرجوا من البيوت بعد حلول الليل ونزول الظلام ، وكانت هذه الحيلة السيئة هي حكاية « السعلية » ، وبعضهم يدعوها « الدُّجّيرة » ، ولها أسماء كثيرة أخرى ، وهي تتحدث عن « جِنيَّة » شريرة تتخفَّى بملابس النساء ، وتنطلق في الحواري والشوارع الضيقة ، وبين البيوت ، بعد أن تغيب الشمس ويحل الظلام ، وتترصَّد الأطفال في هذه الأماكن الضيقة المنزوية ؛ لتؤذيهم وتفتك بهم .

وهذه « السعلية » في هذه الأسطورة لا يختلف شكلها عن أية امرأةٍ ، إلا أنها ليست أقدام إنسان ، بل لها حوافر مثل حوافر الحمار ؛ ولذلك يجب على الأطفال ألا يخرجوا من الدُّور في الليل حتى لا تؤذيهم أو تخطفهم هذه « السعلية » .

يقول الشيخ ابن بطوطة : ولك أن تتصور ما تثيره هذه الحيلة التربوية السيئة في نفوس الأطفال من مشاعر الخوف والرهبة من الليل ومن الظلام ، وتغرس في نفوسهم رهبة الخروج في الليل ، وكذلك الخروج إلى غير المأمون المألوف

من الأماكن ؛ الأمر الذي يؤدي إلى قتل روح الجرأة والمغامرة في نفوس أبناء هؤلاء الأمهات .

يقول بيدبا : وحرصت أن أذكر فيما أرويه من حديث الشيخ ابن بطوطة على هذه الأمثلة التربوية ؛ لما فيها من دروس وعظة وعبرة تربوية للآباء والأمهات ؛ حتى يُقدِّروا قيمة المعرفة التربوية ، وألا يستهينوا بأي أمرٍ من أمور تربية أبنائهم ، قد تترك فيهم آثارًا سيئة خطيرة لا يدركون آثارها إلا بعد اشتداد العود ، واكتمال النمو النفسي ، وفوات الأوان .

ويواصل بيدبا ذكرياته عما ذكره له الرحالة الشيخ ابن بطوطة في لقائه به من أخبار جزيرة البنائين ، وكيف أن من أهم ما لاحظه ابن بطوطة عن أبناء تلك البلاد أنهم – لحسن مناهج تربيتهم وتعليمهم – كانوا يتمتَّعون بالمهارة والإبداع وحرية التفكير وشجاعة الرأي والتعبير ، ومشاعر الأنفة والعزَّة والكرامة في مودة وتواضع لا يشوبهما كذب ولا كبر ، كما كانوا يتمتَّعون بوفرة صنائعهم وزراعاتهم ، حتى لا تجد بينهم عاطلًا عن العمل ؛ الأمر الذي يدل على حسن تربيتهم وتعليمهم ، ويبرهن على رقي مدارسهم ومعاهد التدريب عندهم .

لقد كانت عنايتهم بالأمومة وبالطفل وبالناشئة من أروع ما رآه وسمع عنه الرحالة ابن بطوطة ؛ حيث لم تكن هناك

منشأة ترعى الأمومة والأنوثة إلا كان لديهم خيرٌ منها ، ولم تكن هناك منشأة تربوية أو ثقافية أو ترويحية تُنمِّي طاقات الطفل ، وتنمِّي قدراته ، إلا كنت تجدها متوافرة في أحسن صورها لديهم ، وهي تغص بالصغار والفتيان الذين يمارسون على مدار يومهم ، وفي كل أيام السنة ، شتاءً وصيفًا ، خريفًا وربيعًا ، كلَّ ألوان النشاطات والمهارات في المدارس والمكتبات ، وفي النوادي والمخيمات ، في المدن والأرياف ، وفي بطون الأودية ، وعلى قمم الجبال ، وعلى أمواج البحار وشواطئ الأنهار .

قال بيدبا : حينما تحدث الشيخ الرحالة عن الأسرة والمرأة ونجاحها ومكانتها في الجزيرة سألته : كيف تعامل النساءُ والزوجات الرجالَ والأزواج ؟ فأجابني الشيخ جوابًا عجيبًا فيه كثير من الغرابة والفكاهة والمتعة ؛ حيث قال الشيخ الجليل : الزوجاتُ في جزيرة البنائين يا بيدبا يعاملن رجالهن كما يعامل الحَمَّارُ (صاحب الحمار) حمارَه .

قال بيدبا للشيخ الرحالة ، وهو يسمع هذا الجواب المضحك المفاجئ العجيب : ما أظنك إلا مازحًا أيها الشيخ ! فأنت تمتدح الجزيرة وأهلها ، والأسرة والمرأة ورجال الجزيرة ، فكيف تقول ما تقول ؟؟

قال ابن بطوطة : أنت محقٌّ أيها الحكيم في استغرابك مما سمعت ، ولكن عليك ألا تعجل أيها الحكيم حتى تعي

وتفهم دلالة ما أقول ؛ ففيما ذكرته لك حكمة بالغة ليت كل النساء في هذا الزمان يَعِينَها ويدركن قيمتها ، وخاصةً ما نرى في هذه الأيام من حال الشباب والأزواج ، وما ينشب بينهم من نزاعات أسرية وشجارات وحماقات لأسباب عجيبة ينتهي كثير منها إلى الطلاق وشقاء الأبناء .

قال بيدبا : قلت للشيخ : ما عليك أيها الشيخ الجليل ؛ فأفصح عما تقصد ، وستجدني إن شاء اللَّه من المُنْصتين الصابرين .

قال الشيخ ابن بطوطة : لعلك تذكر يا بيدبا كيف كانت تتم - في العصور الماضية ؛ بل وفي كثير من قرى بعض البلاد الفقيرة حتى اليوم - المواصلاتُ ونقل الأحمال على ظهور الحيوانات كالجمال والبغال ، وكانت الحمير لصبرها وقوة تحمُّلها ، وهدوء طبعها ، وقلة كلفة « علفها » وطعامها ، أكثرَ الحيوانات استخدامًا للنقل والتنقل .

وكان الحَمَّارةُ ، أي : أصحاب الحمير ، يقتنون الحميرَ ، ويعتنون بها ؛ لتأجيرها لأصحاب الحاجة ، ويعيشون من مردود عمل هذه الحمير .

لذلك كان صاحب الحمار يحرص يوميًّا على العناية بالحمار في طعامه وشرابه ونظافته وموضع نومه ؛ حتى يحافظ عليه وعلى صحته للعمل اليومي الشاق ؛ الذي

يسخِّره له (ويتعيَّش) من دخله ، وقد لا يعتني صاحب الحمار بنفسه قدر عنايته بحماره ؛ لأنه إذا لم يعتن به أصابته الأمراض ، وقد يهلك حماره فيضيع معه رأس ماله ومصدر رزقه. .

وكانت عجائز الجزيرة يا بيدبا ينصحن بناتهن عند الزواج ، أي : في بداية حياتهن وصدر شبابهنَّ ، وهي في الوقت نفسه مرحلة الإخصاب والحمل والولادة وتربية الصغار عند النساء ، أن يجعلن أولويتهن في هذه المرحلة العنايةَ بأسرهنَّ وأزواجهنَّ ، وأن تهتم المرأة بزوجها ، وتعني به عندما يعود إلى داره في المساء عنايةَ الحَمَّار بحماره ؛ حتى يصبح كحمار الحَمَّار في غده قادرًا نشيطًا في عمله ؛ يوفر لنفسه ولمن حوله قوتهم وحاجتهم .

وهكذا كانت الزوجات في تلك الجزيرة يعشن بهذه السياسة الحكيمة ، وبهذه الحكمة الذهبية مع أزواجهنَّ في سعادة ؛ لأنهنَّ ينكببن - استجابة لأولويات فطرتهنَّ - على رعاية أبنائهنَّ وأسرهنَّ وأزواجهنَّ ، في إخلاصٍ وحبٍّ ووئام ؛ ولأنهنَّ يحرصْنَ في غير شطط على راحة أزواجهنَّ في الليل حين يعودون مجهدين من أعمالهم ؛ فيهششن ويبششن في وجوههم ، وينادمنهم ، ويؤنسنهم ، ويأنسن بهم ، ويلبين لهم حاجاتهم ، فلا يألو الأزواج جهدًا في إرضاء زوجاتهم ، والسعي لما فيه حاجتهن وحاجة أطفالهن ، وهو ما عبَّرت

عنه فضليات النساء بمَثَلٍ دارجٍ ، وهو عبارة حكيمة مختصرة ، تكتب بماء الذهب ، عن أهمية فهم الزوجة لزوجها ، وحسن معاملته ليصبح « في الليل غفير (حارس) وفي النهار أجير » .

وهكذا تجد الأزواج في جزيرة البنائين سعداء بأن يُعامَلوا معاملة الحمير ، وتجد الزوجات سعيداتٍ بكونهنَّ زوجات الحمير ؛ حبًّا ورعايةً من النساء ، وعملًا وبذلًا من الرجال .

يا بيدبا نحن نظلم الحمير ؛ لأن للحمير في الحقيقة صفاتٍ رائعةً ، وإن خير الأزواج لأهله ما كانت له صفات الحمير هذه ، وليت النساء في هذا العصر يدركن ذلك ، ويعاملن أزواجهنَّ كما يعامل الحَمَّار حمارَه ، وهذا يا بيدبا أمر ممكن ؛ لأنَّ صفات جُلِّ الرجال يا بيدبا هي صفات الحمير ؛ فالحمير قوية صبورة ذكية ، هادئة الطبع ، شديدة التحمُّل ، ليس في طبعها العنف والمشاكسة ، بل إن أصحابها يلقون مقودها على ظهورها ، وهي تعرف دروبها التي تعودتها ، دون حاجة إلى سائس أو دليل .

والحميرُ يا بيدبا لا تغضب ، إلا إذا بالغ المرء في إيذائها ، عند ذلك تغضب ، وتصبح عنيدة وصعبة القياد ، وحينها لن تتردد في رفس الشخص الذي يؤذيها بحافري خلفيتيها القويتين ؛ تنتقم منه وتبعده عنها .

كل الرجال الأسوياء يا بيدبا لهم صفات الحمير ، ولديهم القابلية لأن ينقادوا لزوجاتهم ، وأن يعملوا جاهدين على تلبية حاجاتهنَّ ، كل ذلك ممكن لو عرفت النساء كيف يتعاملن مع الرجال ؛ ولذلك فإن من المهم يا بيدبا في كل مجتمع يسعى إلى الوئام الاجتماعي أن يحرص على تفهم الفطرة والطبائع والحاجات ؛ فيعمل على تنمية الثقافة الأسرية والوالدية ، وأن يكون ذلك من صلب برامج التربية والتعليم ؛ ليتعرف الأزواج والآباء والأبناء كيف يتعاملون مع بعضهم بعضًا في مؤسسة الأسرة ، وكيف يُنصِفون شركاء الأسرة ، وكيف يُنصَفون منهم ؛ حتى يحل بينهم الحب والتعاون والوئام .

يا بيدبا ؛ يجب أن نحرص في تربية أبنائنا على غرس جوهر طبع الأمومة والأبوة في نفوسهم حتى يحسنوا أداء أدوارهم في بناء أسرهم التي هي أساس بناء المجتمع ، والتي هي أساس بناء المجتمع ، والتي هي محضن بناء المواطنين ، وهي تربة سعادة نشأتهم وبناء قدراتهم .

وجوهر طبع الأمومة والأبوة في النفوس يا بيدبا هو الحب والتضحية لدى الأم ، هو العطاء وحس المسؤولية لدى الأب ، وإذا ضُيِّع هذا الجوهر في طبائع الآباء والأمهات ، وزُيِّفَتْ الأدوار يا بيدبا تهدمت الأسرة ، وشقى الآباء والأبناء معًا ، وزالت روابط الحب وصلات التراحم

ومشاعر الإخاء من المجتمعات ، وليس إلا عنصر الوقت حتى تتسع الشروخ في أساس بناء المجتمعات لتنتهي إلى الفناء والتهدم والضياع .

قال بيدبا : نعم ، لقد صدقت أيها الشيخ ، ليت أبناء زماننا وبناتنا يحافظون على جوهر طبائعهم ، وعلى راحة بعضهم بعضًا ، كل في حس أداء دوره وتكامل أدائه ، كلٌّ يعطي الحق من نفسه دون إرهاق ولا شطط ، لو تحقق هذا بفضل التربية الوالدية الصحيحة التي يجب أن تكون في صلب ثقافة آباء المستقبل وأمهاته ، في معاهد الدرس والتعليم ، ولاسيما المراحلُ العليا منه ، لو تحقق ذلك وحرصنا عليه يا بيدبا لما رأينا ما نرى من ألوان الشقاق والنزاع ، وتفشي العنف ، وتهدم الأسر ، وشقاء الآباء والأبناء ، بين كثير من شباب هذا الزمان .

قال الشيخ ابن بطوطة : ليس ذلك كل شيء يا بيدبا ؛ فإن هناك حقوقًا وواجباتٍ على المجتمع أن يؤديها للنساء والأمهات ، وهي تتعلق بفترة ما بعد فترة الخصوبة والأمومة والحمل والوضع والتربية الأسرية ، أي : فترة ما بعد حوالي سن الأربعين ، أو الخامسة والأربعين ، إلى حوالي الخامسة والستين أو السبعين من العمر ؛ حيث تتحرر المرأة في هذه المرحلة من جُلِّ أعباء الأمومة ، وقد انقطع عنها الحمل ، ونما ريش صغارها ، وهي ما تزال في أفضل

أحوالها قدرةً وخبرةً وتجربةً ، ويصبح العملُ والإسهام الاجتماعي ، في هذه المرحلة ، أي : مرحلة ما بعد الأمومة ، أي : فترة الأربعين حتى السبعين من عمر المرأة ، هو أولويتها ، وأفضل شيء ، وأثمنَ شيء يمكن أن تملأ به حياتها ، وتسهم به في رفاهة مجتمعها وتقدمه .

ولذلك فإن المجتمعات التي يهمها حقًّا حماية المرأة ، ورعاية الأمومة ، ورعاية الأسرة وروابط الرحم ، وسلامة النسيج الاجتماعي وقوته ؛ أن تضع من البرامج والتشريعات بقدر ما يوفر حاجات الأمومة وأمنها ، كما يوفر أيضًا للمرأة في مرحلة ما بعد الأمومة مجالات العمل وبرامج إعادة التأهيل اللازم لدخولها سوق العمل ، وأن تحتسب لها علاوات خبرة الأمومة وتضحياتها ، وخبرة إدارة أعمال المنزل والأسرة وتعقيداتها ، فيُعَدُّ سنُّ الأربعين - كما هو في جزيرة السَّلاميين وواديهم - هو سن دخول جمهور النساء سوقَ العمل ، مما يمد المجتمع بطاقة إنسانية ناضجة مؤهلة راقية ، وفي الوقت نفسه فإن ذلك أمر يحقق حاجات نفوس هؤلاء السيدات وتطلعاتهن ، ويشغل بشكل إيجابي مفيد ما توافر للنساء من الوقت بعد انقضاء مشاغل الأسرة والأمومة ، ليس فقط للنساء والمجتمع ، بل إنه يسهم أيضًا في تخفيف المشاكل الأسرية الناجمة عن تدخلات الحموات المتفرغات ، وما يسبب ذلك من تنغيصات حياة

obeikandi.com

الأزواج الشباب .

والأهم من كل ذلك يا بيدبا أن عمل المرأة وإسهامها في نشاط المجتمع ، في هذه المرحلة ، يوفر لها أمنًا وضماناتٍ إضافيةً ؛ هي في هذه السن قد تكون في أشد الحاجة إليها ، كما أنها تحفظ لها كرامتها الإنسانية أمام مستجدات الحياة والظروف التي قد تتهدد أمن المرأة واستقرار حياتها ورفاهيتها .

والعجيب يا بيدبا أن ما يحدث اليوم في كثير من المجتمعات هو عكس ذلك ؛ مما يثقل كاهل المرأة بالعمل في شبابها وأمومتها ، ويضع المتاعب والعراقيل أمام دور الأمومة الأساس في حياتها في هذه الفترة ، ثم هم بعد ذلك يقذفون بالمرأة إلى البطالة والعطالة ، بعد أن تنتهي فترة الأمومة ومشاغلها الهامة والخطيرة في حياة أبناء المجتمع واستقرارهم ؛ فتحال إلى المعاش والبطالة وهي ما تزال في أوج قدراتها الجسدية والنفسية ، بل لعلها في هذه الفترة أقدر جسديًّا ونفسيًّا من نظرائها الرجال ؛ بفعل متانة بناء جسد المرأة وتغيراتها الهرمونية ؛ حيث تقل هرمونات الأنوثة عندها ، وتزداد هرمونات الذكورة ؛ مما يقوي شخصيتها وإيجابية أدائها ، على عكس الرجل الذي تقل عنده في هذه المرحلة هرمونات الذكورة ، وتزداد عنده هرمونات الأنوثة ، وإن كان ذلك – لحسن الحظ – يتم بشكل غير سريع ؛ مما يزيد

في نضج الرجل قبل أن ينتهي إلى الشيخوخة وضعف الجسد وانخفاض مستوى الأداء .

يا بيدبا ؛ يجب على الأمم والشعوب السَّلامية التي يجب أن تُعنى - بسبب الأصل في منطلقاتها - بالأسرة والأمومة ، وأن تهتم بحقوق المرأة والأمومة ، وبسلامة الروابط والأخلاق الاجتماعية ومتانتها ؛ أن تقدِّم لذاتها ولعالم اليوم الرؤيةَ البديلةَ التي تقوم على المبادئ والأسس الروحية للفطرة الإنسانية ، والغاية منها ، والمبنية على تلاؤمها وتكاملها وصيانة كرامتها ، بعيدًا عن حمى النزوات والشهوات والتفسخ والانحلال الحيواني ؛ الذي يتنكر للفطرة الإنسانية ، ويتاجر بالمرأة وبأنوثتها ، دون حسابٍ للعواقب ؛ لتصبح سلعة ودمية تجوب الحانات والشوارع والمكاتب ، تعرض فتنتها وغوايتها لمن يدفع لها مقابلًا أكبر لقاء التضحية بعفتها وكرامتها وأنوثتها ، بعيدًا عن حب الطفل ، ورعاية الزوج ، ودفء الأسرة والدار .

قال بيدبا : قلت للشيخ : لقد أوفيت وأجزيت أيها الشيخ الجليل ، فجزاك اللَّه خيرًا ، فقد أدركت الآن جدية ما تقول ، وأهمية ما تقصد إليه من وجوب اهتمام الشعوب والمفكرين السَّلاميين بتقديم الرؤية البديلة لما يروَّج له - برغم كل زيفِ القول وتدليسه بوسائل الإعلام وإغراء المال - من الفساد وظلم المرأة ، في هذا الزمان ، ساء ما يفعلون ؛

فأرجو أن تتابع أيها الشيخ الجليل بقية حديثك عن أحوال الجزيرة والوادي .

أجاب الشيخ ابن بطوطة بيدبا قائلًا له : دع الأمر يا بيدبا إلى الغد إن شاء اللّه ، وكفانا ما تحدثنا به اليوم .

يقول بيدبا : في ذلك اليوم تركنا مجلس الشيخ وقد ازداد شوقي وشوق إخواني إلى متابعة حديث الشيخ ابن بطوطة عن الجزيرة والوادي .

وعند ذلك أخذنا في الانصراف بعد مصافحة الشيخ بكل أدبٍ واحترامٍ ، ليس فقط احترامًا وإجلالًا له ، ولكن أيضًا خشية ورهبة من قطة الشيخ الجميلة التي تجلس بين يديه ترقب ما يجري في المجلس وكأنها كلب حارس أمين مكلف بحراسته ورعايته والتأكد من التزام من يؤم مجلس الشيخ للآداب المرعية في مجلسه ، وإلّا كان نصيب المخالف تكشيرة أنياب حادة جميلة ونظرة غضب من عينيها المستديرتين الملونتين .

يقول بيدبا : لا شك أن قطة الشيخ إحدى عجائب الحيوانات في ذكائها وجمالها حتى إننا نكاد نظن من تعبيراتها الذكية الجميلة أنها تفهم ما يقوله الشيخ ، واللّه ما أجملها وهي تتقدمه وهو يلج إلى المجلس ، وتتقدمه وهو يخرج من المجلس ، وتجلس بين يديه بكل اليقظة وهو يتحدث .

ومن عجائب هذه القطة أنها كانت في كل جلسةٍ تجول مرةً أو مرتين بين صفوف الحاضرين وكأنها تتفقد النظام ومدى مناسبة تصرفات الحاضرين لآداب مجلس الشيخ ، وكانت تلك فرصتنا لكي نمر بأيدينا على فرو ظهرها الأبيض الناعم تدليلًا لها وألفة بها ، وهي تتلفت إلينا بنظرة رضًا وحبٍّ ، يمنةً ويسرةً ، وقد هدأت خطواتها الدالة الرزينة دون أن تتوقف عند أي واحدٍ منا ، بل إنها تقف أحيانًا عند بعضنا ، وكأنها تحتجُّ على جلسته أو هيئته ، وتمد يدها إليه ضاغطةً بها على ذراعه أو فخذه ؛ تنبيهًا أو تأنيبًا ، لا يسع الجالس معها إلَّا أن يعتدل في جلسته ، أو يصلح من هندامه .

يقول بيدبا : لقد كانت قطة الشيخ إحدى متع جلسات مجلس الشيخ وعضوًا مؤنسًا محبوبًا في المجلس ينشر حوله جوًّا من الحب والألفة ، وقد كان من حب الشيخ لها أنها لا تفارق مجلسه ولا تأكل إلَّا من يديه ، ولا يخدمنا الأعوان بشيء من الشراب أو الطعام إلَّا كان نصيبها قدح من اللبن يقدِّمه الشيخ لها بكل رقة حيث يمرر يده على ظهرها الناعم الجميل ؛ تعبيرًا عن محبته لها ، وإيذانًا لها بتناول نصيبها من اللبن .

٢
صواعق السحب السوداء

قال بيدبا : جلسنا إلى الشيخ ومازلنا نذكر حديثه في اليوم السابق ، عن الرؤية البديلة بشأن المرأة وإنصافها ، وحفظ كرامتها بالتربية الصحيحة ، وبالتشريعات الصائبة ، وبالترتيبات الفعَّالة ؛ وهكذا جلسنا إلى الشيخ في هذا اليوم نستمع إليه يتابع حديثه عن الجزيرة والوادي ، فوجدناه معجبًا إعجابًا شديدًا بنظام الجزيرة والوادي ، الذي كان - كما ذكر الشيخ - نظامًا رائعًا يثير الدهشة والإعجاب ؛ وذلك لتكامل مؤسساته ، وخلوها من الفساد والإتاوات والرشاوى والمحسوبيات ، وإهدار المال العام ، أو من تسيب العاملين ، أو عدم معرفتهم بواجباتهم ، أو ضعف إحساسهم بمسؤولياتهم ، وذلك ولا شك مرجعه في الأساس إلى حسن التربية والتعليم والتدريب الجيد ، وإلى الإعلام المبدع المستنير ، وإلى جهود مؤسسات الدعوة وبذر القيم والمبادئ السليمة في نفوس الناشئة ، فهذه المؤسسات توفر إلى جانب مؤسسات التشريع والمراقبة أكبر قدر من الإخلاص والوعي والشفافية ، الأمر الذي لا يعطي الفرصة للخفافيش وضعاف النفوس لأن تنشر أمراضها النفسية ومصالحها

الأنانية تعمل على تخريب النفوس والعقول ، والاستيلاء الظالم على الموارد ، وتخريب الحياة العامة ؛ ولذلك أيضًا لم يكن مستغربًا أن ينعدم العنف والجريمة في المجتمع أو يكاد ، وأن تلمس آثار الإحساس بالأمن في كل مظاهر الحياة في مدن الجزيرة وأريافها .

قال الحكيم بيدبا : لقد ذكر لنا الرحالة الجليل ابن بطوطة أنه من الواضح له أن تأثير الدعوة والتعليم القيمي إلى جانب الإعلام الحُرِّ النزيه المستقل كان من أهم أسباب سلامة قرارات الشعب واختياراته ، لتأتي قرارات واختيارات خيِّرة ورشيدة تضبط سير إدارة السلطة ؛ حتى تتوخَّى العدل ، وتحمي الموارد ، وتشجِّع الإبداع والعمل ، وتنمِّي روح التكافل ، وتحمي الوطن ، وتوفِّر الأمن والسلام والرفاه للجميع .

قال بيدبا : لقد سعد الشيخ الجليل ابن بطوطة أيما سعادة بالأيام التي قضاها في تلك الجزيرة ؛ وذلك يعود إلى كرم أبنائها ، وكرم خلقهم ، ونظافة معاملاتهم ، ونظافة مدنهم وبلادهم ، وجمالها وجمال طبيعتها التي حافظوا عليها ، وأحسنوا تخطيطها ؛ لأنهم جميعًا أصحابها ، وهم شركاء فيها وفي خيراتها ، حتى إن طرقاتها ومواصلاتها لا تختنق بالزحام ، ولا يصاب فيها المرء بالآفات والأمراض ؛ بسبب تسرُّب العوادم وأدخنة الصناعات ومخلفات المشعات

والكيماويات .

قال بيدبا : وعلى الرغم من كل ذلك فقد أكد لي الشيخ الرَّحالة أن جزيرة البنائين في الحقيقة لا تختلف في طبيعتها عما يعرفه الكثيرون في بلادهم ، فهي تتمتع بالجمال والموارد التي أنعم اللَّه بها على الكثير من البلاد ، بل والنعم التي لا يخلو بلد من بلاد اللَّه منها ، وإن اختلفت صورها وفوائدها ، مما يزيدها الاختلاف والتباين بين مختلف البلاد تنوعًا وتكاملًا وجمالًا .

في الحقيقة فإن الفرق الذي يميز تلك الجزيرة ، والكثير من البلاد المتحضرة مثلها - كما يذكر الرَّحالة ابن بطوطة - ليس هو الأرض ، بل هو المواطن ، وما يحظى به من تربية وتعليم ، وما يتحلَّى به من رؤية كونية ، ومن قيم وأخلاق ومبادئ ، يبني بها سلوكه وقدراته ومؤسساته ، يحترم بها حقوق الإنسان وكرامته ؛ ليحيا الجميع حياة حرَّة كريمة ؛ يوفر فيها حاجاته ، ويبدع في إنتاجه ، ويحمي أهله وأوطانه .

هنا توقف الشيخ الرَّحالة ابن بطوطة عن الحديث لينادي غلامًا له ليأتينا بشيء من التمر وشراب الزهور ، على عادة قومه في إكرام الضيف وإسعاده بما يحملون له من مشاعر المودة وترحاب الصحبة والمقام ؛ إدراكًا منهم لما قد يحسه الغريب من خوف المجهول ، ومشاعر الغربة ، وحاجته إلى

العون والألفة ، بعيدًا عن الديار والأهل والأصحاب .

قال بيدبا : قلت له أشكرك أيها الشيخ الجليل على كرمك ، ولا أخفي عليك أنني تلفتُّ يمينًا وشمالًا في مجلسك فلم أرَ – والحمد للّه – عندك ما يشيع بين أبناء هذا الزمان ، ويذكر أصحاب الحكمة والطب أنه مدمر للصحة ، وهو داء « التدخين » أو ما يدعونه « عادة التدخين » ويصنعون مادته على هيئات مختلفة جلُّها من ورقة شجرة « التبغ » الذي يحرقون ورقه بأفواههم ، وينفثون دخانه المحترق من أفواههم وأنوفهم ، ونتيجةً لذلك فهم يستنشقون كربونه المحترق في رئاتهم التي تسْوَد وتتشوه بفعل دخان هذا الكربون الأسود المحترق الذي يدخل إلى كل حويصلة هوائية في رئة من يستنشقونه ، وهم – وأنت ولا شك تعرف ذلك أيها الشيخ – يأخذونه على شكل « سيجار » أو « سيجارة » أو على شكل ما يسمونه « الغليون » أو ما يسمونه « الجوزة » و« الشيشة » و« الأرجيلة » وبغباء عجيب يتفنَّنون في صنع هذه الأدوات ، ويديرونها في جلساتهم ، ويسهرون الليالي في استنشاق سمومها في خياشيمهم ورئاتهم ، ويلوثون بدخانها وسمومها مجالسَهم وأماكن عملهم وبيئتهم ، ويجنون بها على مَنْ لا يُدخِّن مثلهم .

قال الشيخ الرَّحالة ابن بطوطة : سامحك اللّه يا بيدبا !

هل خطر ببالك أن أكون على هذا القدر من الجهل والغباء ، فرحَّالة مثلي لا بد أن يعلم كل ما تعرف من أمر التدخين ، ويعلم ما يسببه التدخين من أمراض الرئة والصدر الخطيرة ، ومنها الأمراض السرطانية الناشئة عن هذه المواد الكربونية المتفحمة السامة التي يدفع الجهال أموالهم ليكون جزاؤهم كل هذه الآفات الصحية .

اعلم يا بيدبا أنك حين ترى مثل هذه الظواهر الخطيرة الضارة متفشيةً في مجتمع من المجتمعات ؛ فاعلم أن هناك ما هو أخطر منها ، ومن ذلك انتشار الإدمان والعنف والتفكك الأسري والاجتماعي بسبب الطلاق والعنوسة ، وانتشار المفاسد الأخلاقية ؛ حيث تتفشى كل هذه المآسي ، وما هو أخطر منها في المجتمع ؛ بسبب ضعف الوعي وفشل الأسرة والمدرسة والإعلام في أداء أدوارها في تلك المجتمعات ، فالتدخين وأمراضه يا بيدبا هو دليل مهم على وجود أمراض خطيرة أخرى ، تلك هي الحقيقة مهما زيَّفت تلك المجتمعات حقائق واقعها ، وأنكرت حقيقة أمراضها ، وضعف ثقافة مواطنيها ، وتدني وعيهم ، وسوء إدارة أمورها .

يقول بيدبا : عند هذا الحد أطرق الشيخ الرحالة ، وهو غارق في أفكاره وتأملاته وذكرياته ، ثم التفت إليَّ وقال : دعني أكرر عليك يا بيدبا ، أنه يجب على كل الشعوب

والأمم أن تجعل التربية والتعليم أولويةً في إنفاقها ورعاية شؤون شعوبها ، وليس المهم هو أن تنجح فقط في التعليم وتمكين الناشئة من القدرات المطلوبة لما يسمون في هذا الزمان « سوق العمل » ، فلقمة العيش وقدرة الأداء وتسخير الموارد أمر مهم وضروري ، ولكن ذلك وحده لا يكفي ، ولا بد معه من حسن التربية ، فالآليات والأدوات إذا لم يحسن استخدامها ويعتنى بسلامة غاياتها فلا بد أن تضر في نهاية المطاف أصحابَها ، وتنقلب عليهم نقمة وأداةً للشر والتدمير ، وبوسائل أقوى وأسرع وأشد فتكًا ، على ما ترى في هذا الزمان من التحلل الأخلاقي ، والتفكك الاجتماعي ، وانتشار الحروب والصراعات بين الشعوب والأمم ، وشدة فتك ما بأيديهم من أدوات الحروب والقتل والتدمير .

تلك يا بيدبا حال الشعوب التي نجحت في التعليم ، ولكنها فشلت في التربية ، وأسوأ منها تلك الشعوب التي فشلت في التعليم وفي التربية على حدٍّ سواء ، ولكن لا يصعب عليك يا بيدبا أن تدرك ما إذا كانت الأمة قد نجحت في التعليم أم لا ؛ لأنَّ قدرات شبابها تتضح بسهولة في إمكاناتهم وقدراتهم الإبداعية المهنية ، وفي ارتفاع معدلات إنتاجهم ، وقلة البطالة في مجتمعاتهم ، ولكن الأهم والأدق هو تقدير نجاح التربية ، وهذا كما ذكرتُ لك تلمسه في حسن سلوك شبابهم ، ومدى نضجهم

وتراحمهم وحبهم للخير وسبل الحق والعدل ، وتقديرهم للمسؤولية والمصلحة العامة .

إنني لا أدري يا بيدبا أي نوع من التربية لدى تلك الشعوب التي يقع أعداد كبيرة من شبابها فريسة المكيفات والمسكرات والمخدرات التي لم يَعُدْ خافيًا ضررها على أحد ؛ ليس جسديًّا فحسب في كافة أعضاء الجسم الأساسية ، بما في ذلك الدماغ والقلب والكبد ؛ بل الأخطر من ذلك ما ينجم عنها من أضرار وتدميرات للقوى العقلية والنفسية والاجتماعية والدينية لضحاياها ، ومع كل ذلك نرى ما نرى ، ونسمع ما نسمع ، ونجد أنه يغلب على الكثير من الشباب انعدام الوعي وعدم تقدير المسؤولية ؛ فتراهم منغمسين في هذه المهلكات التي تدمر صحتهم ، وتقضي على شبابهم أمام أعينهم. فقد غلبت عليهم العادة وضعف الوعي وسوء التربية ، وجردهم ذلك من كل وعي بالتبصُّر ، وحساب العواقب ، وحسِّ المسؤولية ، مثل هذا يا بيدبا لا يقع ولا يتفشى بين شباب أمم وشعوب بذلت جهودها ، وأحسنت أداءها في شؤون الثقافة والتربية والتوعية ، وجعلتها أولوية في تنشئة أجيالها ورعاية أبنائها وبناتها .

إن مرض التدخين يا بيدبا وما يؤدي إليه من التصاق الكربون الأسود المحترق في حويصلات رئات الشباب المدخنين ، هو وكل ما على شاكلته من أمراض الإدمان على

المكيفات والمخدرات ، وما تجر إليه هذه الأمراض الجسدية من أمراض عصبية ونفسية واجتماعية ، هي أشبه ما تكون حقيقة ومعنى بالسحب السوداء التي تحمل الموت والهلاك بما يملأ جوفها من الصواعق الحارقة التي تدمر كلَّ شيء تلامسه ، وتفرّغ في أحشائه صواعقها وكلَّ ما تحمله من نار الجحيم في رئتيه وأحشائه ، ولا وقاية من هذه الصواعق ومن شرور هذه الممارسات الغبية السيئة لكلِّ من له عقل ودراية عن مهالكها إلا الحذر منها ، والابتعاد عن طريقها ، وتجنب كل طريق يؤدي إليها .

إن الأمم والشعوب التي لم تحسن تربية ناشئتها لن ينفعها جودة التعليم وحده ؛ لأن إهمال هذه الشعوب في تربية ناشئتها وتوعيتهم سيعود عليهم بأعتى الآفات وأفدح الخسائر والانحرافات الصحية والأخلاقية والاجتماعية .

يقول بيدبا وهو يعود بذاكرته إلى كل ذلك ، وإلى كل ما دار بينه وبين الشيخ ابن بطوطة من حديث وحوار : لقد أصاب الرحالة ابن بطوطة في كل ما قال ، وهو ما وافقه عليه أيضًا بطلُ قصة ألف ليلة وليلة التراثي الرحالة الشهير سندباد ، الذي يذكر ابن بطوطة أنه أيضًا حظي بزيارة جزيرة البنائين ، وأنه يتفق معه في الإعجاب بنظام الجزيرة وأهلها ، وأن سر نجاح الفرد ونجاح الأمم إنما يكمن في نوعية الفرد ، ونوعية المواطن ، وأن على كل أمة تتطلع إلى

مستقبل زاهر يسعد فيه الإنسان ، ويعز المواطن ، عليها أن تنظر كيف تربي أبناءها ، وأية رؤية كونية تقدمها لهم ، وأية تربية أخلاقية نفسية تغرسها في وجدانهم ، وأية قدرة ودربة علمية توفرها لهم ، وأي إعلام مخلص نزيه يبصرهم بحقيقة واقعهم ، وأية مؤسسات ترعى مصالحهم ، وأي دستور وأي قوانين تقيم العدل وتوفِّر التكافل فيما بينهم .

عند هذا الحد ، قال الفيلسوف بيدبا : بهذه الملاحظات الذكية النفاذة انتهى حديث الرحالة العظيم ابن بطوطة عن جزيرة البنائين وما رآه فيها من العجائب والعبر ، ولكنني لم أشأ أن أترك العلامة الحكيم الرحالة ابن بطوطة قبل أن أسأله عن أمر مهم لم يحدثني عنه ، وأن أسمع رأيه فيه ، وعمَّا رآه بشأنه في تلك الجزيرة الرائعة .

قلت له : أيها الأخ الرحالة الحكيم ، لقد حدثتني حديثًا شيقًا رائعًا عن كثير من شؤون جزيرة البنائين ، وما شاهدته فيها من آيات الجمال والإعمار ، ولكنك لم تحدثني عن أمرين مهمين أحب أن أسمع منك عنهما في تلك البلاد البديعة .

قال الشيخ الرحالة ابن بطوطة : كفانا يا بيدبا ما تحدثنا فيه اليوم عن أحوال وادي جزيرة البنائين ومؤسساتهم وصفاتهم ، وأن مصدر ذلك يعود إلى عنايتهم بشؤون التربية والدعوة والتوعية والإعلام ، ودع ما بقي من الحديث

إلى لقاء غدٍ لاستكمال ما يهمك من الحديث ؛ فلن يَسأل حكيمٌ مجرب فيلسوف مثلك يا بيدبا عن أمور تهمه إلا أن تكون أمورًا خطيرة وشؤونًا عظيمة الأهمية .

٣
عند الفجر يصدح البلبل الطليق

وفي اليوم التالي ، وما إن أخذ بيدبا مقعده في مجلس الشيخ ابن بطوطة ، حتى بادره الشيخ – وهو يرشف كوبًا من خلاصة الزهور المفيدة الفواحة في مودَّة وبشاشة – بسؤاله عن الأمرين اللذين يهمانه ويشغلان باله من شؤون جزيرة البنائين وأهلها ، والتي لم يحدِّثه عنها من قبل .

قال الرحالة ابن بطوطة : وما هما هذان الأمران اللذان يشغلان بال حكيمٍ فيلسوفٍ مثلك يا بيدبا ؟

قال بيدبا : الأمر الأول أيها الشيخ الجليل هو الحرية ، ولنبدأ بها فأنت أيها الشيخ لم تحدثني عن الحريات في تلك الجزيرة ، وماذا كانت تعني عند هؤلاء القوم ، وكيف كانوا يمارسونها ، فالحرية هي من أعوص المشكلات التي تعاني منها كثيرٌ من الأنظمة الاجتماعية ، وتتخبَّط فيها كثيرٌ من البلاد .

فمن البلاد على زماننا من يطلق الحرية ياسيدي حتى تصبح أقرب إلى الفوضى وضياع الأخلاق ، حيث تتقطع الأواصر ، وتشوَّه الطبائع ، وتباح الموبقات ، ومنهم من يضيِّق الخناق على المواطنين كأنهم صبية لا يفقهون مصالحهم ، وقلة ممن يدعونهم صفوة القوم تراهم ينصبون أنفسهم أوصياء على كل الناس ، ولا يصحُّ لأحدٍ أن يتنفس إلا بما يتراءى لهم ، وبإذن منهم .

فكيف كان الحال في تلك البلاد ؟ وكيف كانوا يتصرفون في أنفسهم وسلوكهم وقراراتهم وخياراتهم ، وهل وجدوا حلًّا لهذه المعضلة ، وكيف تجنبوا الوقوع في ضرر الفوضى والخلاص من ضرر الاستبداد ؟ .

أود يا سيدي أن أسمع منك شيئًا مما رأيت وسمعت عن الحرية في تلك البلاد ، لعلنا نجد فيه بعض الدواء الذي يستقيم معه أمر الناس عندنا نحن البشر ، ويتحقق به الاعتدال وصلاح الحال .

قال بيدبا : نظر إليَّ الشيخ ابن بطوطة نظرة تفكر وإمعان ، وقال لي : لقد سألت عن أمر مهم ، وكثير من البلاد والعباد في عالم البشر في حاجة إلى تفهمه وتدبره حتى يحافظوا على أصل حق الحياة ، ومعناها ، والغاية منها ، ويجب أن يكون هذا الفهم نابعًا من اليقين والاقتناع ؛ حتى يحقق للناس توازن حياتهم ، ويرشِّد سلوكَهم ؛ حتى يصبحوا

مخلوقاتٍ صالحةً خيِّرةً على هذه الأرض بالإعمار الصالح العادل ؛ يقيمونه ويسخِّرونه حلالًا ومتاعًا طيبًا كما أراد اللَّه وقدر للأرض وللبشر أن يكونوا ، ويكون ذلك الفهم هو معنى الحياة وميزان الحساب .

قال بيدبا : قلت : نعم صدقت أيها الحكيم بيدبا ، فأخبرني كيف وجدتَ ؟ وماذا رأيتَ ؟

قال ابن بطوطة يجيب بيدبا : أنت تعلم أيها الحكيم بيدبا أن خلقنا وحياتنا على هذه الأرض ، إنما هو لأمد محدد لكل واحد منا ، نعود بعده إلى الخالق ليقدم الإنسان كشف حسابٍ وتقريرٍ عن حصيلة عمله ، وكيفية أدائه للأمانة ، ذلك أن الحياة لم تخلق عبثًا ، وأن الغاية منها لا بد أن تكون خيِّرة ، وهذا معنى تعاقب الأفراد والأجيال ، فهم لبناتٌ تترى تبني عمران الأرض ، والغاية أن يكون خيار الأمانة والاستخلاف الصحيح هو إعمار الأرض إعمارًا بديعًا خيِّرًا على شاكلة عمران الكون ، في جماله وإبداعه باتجاه الخير في التكامل والتناسق والتوازن والاعتدال ؛ ليسود الحقُّ والعدل والتكامل والتكافل والرحمة والسلام على الأرض ، وليكبح الشر ، وكل ما يستتبعه من الصفات التي تؤدي إلى التظالم ، والعدوان وضياع الحقوق ، وهدر المسؤوليات .

ألا ترى معي يا بيدبا أن معنى الحضارة والعمران ، ومعنى الاستخلاف والتسخير إنما يتجسد فيما حققه ويحققه الإنسان في بناء الحضارة على الأرض ؛ من علمٍ ومعرفةٍ وإبداعٍ ؟ أليس من المنافع للناس أن يقطع الناس في ساعاتٍ ما كانوا يقطعونه في شهور وسنين ؟ وأليس من منافع الناس والخلائق مكافحة أمراضٍ كانت تقضي على الألوف الكثيرة والملايين الكثيرة ؟ القصد من العقل والعلم والعمران يا بيدبا هو تسخير المنافع للناس ؛ ولذلك فإن العقل والعلم والسعي بهما في الإعمار هو غاية الخلق مادام فيه نفع الناس وتعبيد النفوس للخير ؛ بالعمل الصالح النافع للعامل الذي يسخِّر المنافع وييسرها للآخرين ؛ فيكون في ذلك للعامل الخيِّر الأجر والمتاع المادي في العاجل ، والأجر الروحي الأعظم في الآجل ؛ وذلك حين تنتهي يا بيدبا مدة حياتنا ، ونقدم كشف حسابنا وتقريرنا عما تمَّ على أيدينا من أعمال ، وحينها نعلم أينا كان في هذه الدنيا ﴿ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ؛ بتسخيرها وإعمارها منافع للناس والخلائق ، على ما أراده اللَّه وسخر له الكون .

قال ابن بطوطة : قلتُ : نعم أيها الحكيم. قال : لقد وجدت أبناء تلك الجزيرة قد أدركوا المعنى الصحيح للحياة ، والمعنى الصحيح للحرية في مجتمعهم ، وفي الأساليب التي ربوا عليها صغارهم ، وعوَّدوهم على

ممارستها ، وحققوا لأنفسهم الخير الذي وهب اللّه العقول لتحقيقها وتسخيرها لخير شعوبهم ، ولولا استخدام العقول وحسن استخدام الحرية ما أمكنهم يا بيدبا أن يقيموا الحضارة والعمران الخيِّر في عالمهم ، على النمط الخيِّر الذي قدموه ، وويلٌ لمن يلغي العقل ، ويكبت الحرية ، ويقتل الإبداع يا بيدبا .

الحرية يا بيدبا لم تكن عند أهل تلك الجزيرة والوادي تعني الفوضى والانفلات واتباع الضلالات والنزوات التي تضيع الحقوق ، وتهدر الكرامات والمسؤوليات ، وتوقع الضرر والمظالم بالنفوس والمجتمعات ، في عاجل أمرهم ، أومستقبل أجيالهم .

لم يكن معنى الحياة يا بيدبا ومعنى الحرية عند مواطني تلك الجزيرة هو حقُّ فعلِ الخطأ ، وارتكاب المفسدات والانحرافات ، والوقوع في الموبقات ، فهذه في شريعتهم وعرفهم ليست حرية ، ولكنها قصور وفوضى وحماقة وتخلُّف ؛ ولأن الحرية عندهم هي جوهر أمانة الحياة والعقل ، وغايتهما ، وهي حقٌّ مقدسٌ ؛ لذلك فهي على عكس المفهوم الضال الفاسد للحرية التي هي بمعنى التحلل والتفسخ والفوضوية ، فذلك من مفاهيم المنحط الطيني من الحيوانات الضالة التي ليست لحياتها معنى ولا غاية ، وتنطلق في الحقيقة من عدمية مادية بحتة ، لا تدرك

إلا ما تلمسه حواسها ، وما تمليه عليها نزواتها ، دون موجِّهٍ من قيمٍ أو ضميرٍ أو ضوابط أخلاقية ، أو حس حمل الأمانة والمسؤولية .

إن الحرية عند أصحاب العقول والضمائر والأخلاق الراقية يا بيدبا ليست هي حقَّ ارتكاب الضرر والمفاسد ، ونشر الدناءات والموبقات ، بل الحرية عندهم هي حق إشاعة الخير ، ودعوة الإصلاح ، وفعل الصواب ، وحفظ الحقوق ، وحمل المسؤوليات ، ونشر قيم الحق والعدل والتكافل ، والتناصح بكل ما يَعُدُّهُ جمهور شورى المجتمع معروفًا وخيرًا وإصلاحًا ، وتجنُّب كل ما يَعُدُّهُ جمهور شورى المجتمع سوءًا ومنكرًا وشرًّا .

قال بيدبا : قلت للحكيم ابن بطوطة : هل هذا يعني أن مجتمعَ الجزيرة وأبناء الوادي من السَّلاميين مبرؤون من ارتكاب الأخطاء ، والوقوع في الزلات والموبقات ، ياشيخنا الجليل .

قال ابن بطوطة : نظر إليَّ الشيخ الرحالة نظرةَ لوم وعتب ، وقال : أنت أحكم من هذا أيها الفيلسوف بيدبا ، فليس هناك مجتمع أو مخلوق معصوم عن الخطأ والوقوع في الموبقات والزلات إلا من عصم ربك ، وقليلٌ ما هم ، ولا يقاس ، أصلحك اللَّه عليهم ، فالوقوع في الأخطاء

والزلات والمفاسد والموبقات دون قصد ، أو في لحظة غفلةٍ وضعفٍ ، أمرٌ واردٌ حتى على أحكم الحكماء ، ولكن المخلوق الخيِّر إن سوَّلتْ له نفسُه - وقلما يكون - ووقع في أمر من الصغائر ، فيكون ذلك في الغالب فجاءة وخلسةً ، وعلى تردد ووَجَلٍ واستحياء وتأنيب ضمير ؛ لأنه يعلم أن ذلك خطأٌ ويجب أن يرجع عن خطئه إن وقع فيه من قريب ، فنفْسُ السوي لا تصرُّ على الخطأ أو الزلل ، ولا ترغب فيه ، ولا تجهر به ، ولا تصرُّ على الشرور والموبقات حين تقع في شيء منها ، فالإصرار والجهر وإشاعة الرذائل هي الشر الأكبر والضرر الأعم ، وفيها أذى لكل الناس ، وهي داعيةٌ للفوضى وسبيلٌ للانحطاط والانحراف عن السلوك السوي وضياع الحقوق والمسؤوليات .

ناهيك يا بيدبا عن تأثير هذا السلوك ، وهذه الظواهر المنحطَّة ، إن تُرِكتْ تستشري في المجتمع فإن لها أسوأ الآثار والانطباعات على الأبرياء البسطاء من الصغار واليافعين من الشباب .

قال بيدبا : هل هذا يعني أيها الشيخ ، أن على الدولة في سعيها لحماية المجتمع ، أن تجند الأعوان ، لمعرفة ما يفعله الناس حتى في خاصتهم ، وكشف خبيئات من قد يقعون في شيء من المفاسد والموبقات .

عند هذا القول انتصب الشيخ في جلسته ، وبدت على

وجهه شيء من ملامح الانفعال .

نظر الشيخ إلى بيدبا مليًّا ، وكأنه يدير في رأسه ما سيقوله لبيدبا في هذا الأمر الخطير .

قال الشيخ مخاطبًا بيدبا : يا بيدبا إن ما أشرتَ إليه من أمر تجنيد الأعوان ، من قبل السلطات في المجتمع لمعرفة كل ما يفعله الناس ، وحرصًا على الأخلاق في المجتمع ، أمر جِد خطير ، تقع فيه كثير من الجماعات والمجتمعات ، في البداية قد يتم ذلك في كثير من الأحوال بحسن نية ، ولكن هذه الممارسة في الحقيقة ، برغم ذلك ، هي ممارسة خاطئة ، تنتهي بهدم معنى المجتمع ، وبتمكين الاستبداد والتسلط في المجتمع .

أهم ما يجب أن تحرص عليه المجتمعات يا بيدبا ، لكي تكون حقًّا مجتمعات إنسانية هو الإحساس بالأمن ، وإذا فُقِدَ الإحساس بالأمن في أي مجتمع ، فقل عليه السلام .

ليس من حق أحد يا بيدبا أن يتجسس على الناس في خاصتهم ودورهم ، ولا يكون إحساس بالأمن في أي مجتمع ما توقى الناس في خاصتهم ودورهم تلصص الأعين والآذان وتطفلها في خاصة شؤونهم .

حماية الأخلاق في المجتمع يا بيدبا ، لا يكون بالتجسس والتلصص والتَّطفُّل عليهم في دورهم وخاصةً

شأنهم ، ولكن حماية الأخلاق في المجتمع تكون يا بيدبا بشأن الجهر والإعلان بالمفاسد والموبقات ، التي يفرض الفاسدون أنفسهم وفسادهم على الناس بالجهر بها ، فيؤذون بها أعينهم وآذانهم ومشاعرهم ، ويغرون صغارهم ، ويخاطبون غرائزهم ، دون وعي أو إدراك منهم لأمر الحقوق والمسؤوليات والعواقب ، والأمن الاجتماعي يا بيدبا يكون بمنع هذا النوع من الجهر والإعلان بالمفاسد والموبقات ، وهذا المنع هو من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو من أهم أسباب الأمن الاجتماعي ، وحماية الحريات في المجتمع .

أما تجسس السلطات وتلصصها على خاصة الناس ، وحرمة دُوْرِهِم ؛ فذلك من أسباب التسلط والاستبداد ، وإرهاب الناس ، وفي ذلك فساد السلطة ، وفقد الحريات ، وانعدام الإحساس بالأمن ، وانهيار معنى المجتمع .

إن التجسس والتلصص على الناس ، لا تمارسه يا بيدبا إلا السلطات الفاسدة المفلسة ، التي تلجأ إلى وسائل الترهيب لتقهر إرادة المجتمع ، وحتى تطوعه لما هو أكبر وأشد من مفاسد السلطة وانحرافاتها وممارساتها الاستبدادية .

يا بيدبا ، إن أفضل الوسائل الناجعة في معالجة الأخلاق في المجتمع ، وفي خاصة الناس ، وأكثرها جدوى وفاعلية ،

إنما يتم بالتربية ، وما يبذر في نفوس الناشئة من القيم والمفاهيم والمبادئ ، وليس بالسوط والعصا ، فلن يورث التجسس والعصا ، رقي الأخلاق ونقاء النفوس ، ولكنهما يورثان الخوف والجبن والنفاق والكذب والإمعان في الانحراف والفساد .

وإذا أدركنا يا بيدبا من هو اللّه ؟ وماذا يمثل ؟ وأدركنا من هو الشيطان وماذا يمثل ؟ أدركنا أن جُلَّ البشر على وجه الحقيقة يحبون « اللّه » ويكرهون « الشيطان » على الرغم من أنهم لا يعلمون ذلك ؛ لأن رؤية كثير منهم قد تشوَّهت وأصبح « اللّه » عندهم قوة طاغية ، ساحقة ، ماحقة ، ترقب خطواتهم وتترقب أخطاءهم وزلاتهم في شدة وقسوة ، وإنما كان ذلك يا بيدبا بسبب تدهور فكر هذه الأمم ، وبسبب شهوات أصحاب السلطة ونوازع الاستبداد في نفوسهم ونفوس أصحاب المصالح الخاصة من حولهم ؛ ليسترهبوا شعبوهم ويذلوا نفوسهم ، وليتمكنوا من إخماد طاقات العزة والكرامة فيهم ، وتمكين العدوان على حقوقهم ومقدراتهم ، ولا يكون ذلك يا بيدبا إلا بتشويه رؤية هذه الشعوب ، وخلط الخطاب ، فلا يكون إلَّا خطاب التهديد والوعيد والتخويف الموجَّه إلى المعتدين والمعاندين وأصحاب النفوس الشريرة التي تهوى الشر والظلم والباطل والقسوة والعدوان وتتبع الشيطان ، وليصبح خطاب نفوس

المؤمنين التي تهوى قيم الحق والعدل والرحمة والسَلام التي هي صفات « الرحمن » وتتطلع إليها ، فتصاب بداء الخوف والهلع والرهبة ، ويأخذها الإحباط واليأس ، ولا ترى من نفوسها إلا الهفوات والزلات والعورات .

إن خطاب « اللَّه » يا بيدبا بالوعيد إنما هو للنفوس العاصية التي تهوى الشر وتصر عليه ، وليس للنفوس المؤمنة التي تحب الخير ، وتتطلع إليه ، وتحرص على تجنب الأخطاء والزلات ، وتنأى عنها ، وتتوب منها عن قريبٍ إن وقعت فيها .

يجب يا بيدبا أن يكون خطاب المؤمنين خطابَ حبٍّ وأملٍ وتبصير واستنهاضٍ للهمم ، خطاب يعمق حبَّ الرحمـن والتوجه إليه ، والسعي والنصب بشغف إلى مرضات المحبوب وخشية إعراضه وغضبه .

وهكذا ترى يا بيدبا أن زلات الطباع وتحديات النوازع تختلف عن جرائم المعاملات وتبادل المنافع بين الناس ، وما يستتبعها من أداء الحقوق وحفظ الدماء ، وإلا من بشأنها يكون بمنع تعدياتها ، وهي جرائم وتعديات يتظلم أطرافها وأصحاب المصالح والحقوق فيها ، وتتطلَّب البينة والدليل ، ولا تتطلَّب التجسس والتلصص وتتبع الهفوات والعورات والعثرات ، ويكون منعها واستيفاء التعديات فيها هو الغاية ،

ويكون العقاب والردع وسيلة مهمة من وسائل منعها وحد دوافع الطمع والعدوانية التي تحركها وتفري بها ؛ وذلك حفظًا للأمن الاجتماعي وصونًا للحقوق والدماء .

يا بيدبا أرجو أن أكون قد وضحت لك الأمر ، وأَبَنْتُ لك معنى الأمن الاجتماعي في أمر زلات الطبائع والنزوات ، وفي أمر صون الحقوق والدماء ، والفرق بين زلات طبائع النفوس وأهوائها وهفواتها ، وبين جرائم العدوان على الحقوق والأموال والدماء ، ومعنى كل ذلك في أسلوب التعامل الصحيح مع جانب الأخلاق والممارسات الأخلاقيـة في المجتمع ، وكيف أن التربيـة في هذا المجال هي الأساس وخط الدفاع الأول ودونها لا تجدي القوانين والعقوبات والتهديد بها ، أما التجسس والتلصص ومفاسدهما فلا ينتج عنها إلَّا مزيد من الضرر والفساد ، بعكس أمر الحقوق والأموال والدماء التي - إلى جانب التربية - فإن للعقاب الرادع المناسب ، حسب مقتضى الحال ، له أثره في منع الجريمة ، وإشاعة حسِّ الأمن في المجتمع .

وهكذا ترى يا بيدبا فإنَّ أمن المجتمع ، وإحساس الأمن وليس العقاب هو غاية المجتمعات الرشيدة ؛ ولذلك كانت الحدود والعقوبات القصوى هي السقف ، وأي عقوبة تعزيرية دونها مما يكفي لمنع الجريمة ويحقق الأمن ، يجب أن

يكون أمرًا كافيًا ومقبولًا ، ويجب بقناعة المجتمع عدم تجاوزها .

لذلك فإن من المهم يا بيدبا للآباء والمربين أن ينبهوا الصغار والشباب اليافع إلى معنى أفعالهم وآثارها على سواهم ، وأن يقرِّبوا ذلك تربويًّا وثقافيًّا إلى عقولهم بأمثلة من نفوسهم ، ومن أعزائهم من حولهم ؛ كأبويهم وإخوانهم وأخواتهم ، لو ارتكب الآخرون خطأً في حقهم ، كيف يرون الأمر ؟ وكيف يشعرون ؟ وأن صفاء المعدن ، وحسن المنبت ، وكرم الخلق ، وحس المسؤولية ، وسلامة العاقبة ؛ في أن يحب الإنسان لأخيه ما يحب لنفسه ، فذلك الغرس في قرار النفوس يورث حساسية الضمير ، وضبط النفس من داخلها بدافع فطرة الكرامة الإنسانية واحترام الذات ، وهو حسٌّ وضبطٌ أقوى وأبقى - إن غُرِسَ في أصل الطفولة - من أي تهديدٍ أو وعيد ؛ لأن مجرد التهديد والوعيد كثيرًا ما يتخطاه اليافع بالتناسي والتجاهل بقوة تأثير النوازع والشهوات والنزوات .

وتابع الشيخ ابن بطوطة خطابه إلى الحكيم بيدبا قائلًا : أيها الحكيم بيدبا ؛ إن وازع الخير والتربية والتعود السوي في وجدان المواطنين السلاميين الصالحين هو الذي يردعهم ، ويؤنب ضمائرهم ، ويعيد من يزل منهم إلى طريق الحق والخير والصواب ، ويحمي مجتمعهم من التعدي والتفسخ

وإشاعة الفساد وإضلال الشباب .

قال بيدبا قلت : صدقت أيها الشيخ الحكيم وأصبت ، ففرق بين أن نخطئ وأن نضعف ، وبين أن نطلب علنًا وفي قحة طريق الخطأ والشر والضرر ، فإن من طلب الفساد والشر والضرر عالمًا عامدًا فهو ظهير للشيطان ، عدو للحياة والحرية ، وسلوكه ليس من الحرية ، ولا من الخير ، ولا من الحق والصواب في شيء ، بل هو الانحطاط والتخلف والفوضى والعدمية بعينها ، فيه على المدى هلاك الأمم ، وتحلل المجتمعات ، وانهيار الحضارات .

قال الشيخ ابن بطوطة : إن من ينظر أيها الحكيم بيدبا إلى الحرية على أنها تعني حقه في أن يفعل كل ما يحلو له ، وكل ما تسوِّل له نفسُه ، دون ضابط من حق وخير ومسؤولية ، ودون نظر إلى المصادر والموارد ، ودون تحسُّبٍ للمآل والعواقب ؛ بحيث يختلط في وجدانه الخير والشر ، والصلاح والفساد ، والخطأ والصواب ، لا يبتغي إلا اللذة العاجلة والكسب الرخيص ، فهو ضال مفسدٌ هالكٌ لا محالة ، ومآله إلى فساد الأمر والندم والضياع ، فلا شيء في هذا الكون لا ضابط له ولا قواعد تحدِّد وجهته ، وتضبط مسيرته ، وتحكم مآله ، ففي كل شيء في الكون نظامٌ بقدرٍ ، ولكل شيء مهمة وغاية ، وليس من شيء مما نرى حولنا من الخلق البديع الصنعة يمكن أن يكون مطلقًا أو عبثًا .

قال بيدبا : أصبت أيها الشيخ الجليل ؛ فهذا حال الكون في كل موجوداته ، من الخلية إلى الذرة ، إلى المجرة ، ونحن نعلم أن أيَّ انحراف في أي منظومة منها عن غايتها وضوابطها يكون مصيرها إلى الفساد والدمار .

قال الشيخ الجليل ابن بطوطة : إن ما تذكره هو حقًّا سنة اللَّه في الكون ، ولكن يا بيدبا قد حان الآن وقت الانصراف ؛ لأنني أودُّ أن أخلد إلى شيء من الراحة بعد طول عناء اليوم ، وعناء ما تدارسناه من أمور مهمة في معنى الحياة ومجالاتها ومآلاتها .

٤
الحمامة الحمقاء تلتقط الحب من شِبَاك الصياد

بات بيدبا على أحرٍّ من الجمر شوقًا إلى لقاء الرحالة الجليل ابن بطوطة ؛ ليستكمل معه ما انقطع في اليوم السابق من البحث ، وليستكمل الحديث معه بشأن الأمر الآخر الذي يقلقه ويتشوق إلى سماع رأي الشيخ الجليل ابن بطوطة بشأنه ؛ لعله يجد ضالته عنده كما وجدها فيما سبق الحديث والبحث فيه من شؤون فلسفة الحياة .

دخل بيدبا على الشيخ فوجده قد جلس لشأن يومه في هِمَّة ونشاط .

نظر الشيخ الجليل هاشًّا باشًّا إلى بيدبا ، وقال له : أراك ومن معك قد بكَّرتم في الحضور إلى مجلسنا اليوم ، وكأنكَ ما زلت تدير في نفسك ما كنا نتحاور فيه من حديث الأمس .

قال بيدبا : صدق ظنُّك أيها الشيخ الجليل ، وإنني في أشد الشوق لمواصلة الحديث معك قبل أن يقلع شراعك عن أرضنا ، ولا أمل في لقائنا بك مرة أخرى ، ونحرم من حوارك والإفادة من حكمتك وخبرتك .

قال الشيخ الجليل ابن بطوطة : نعم يا بيدبا ؛ لقد تأملت ما سمعته أنا بدوري منك عن سنن اللَّه في خلق الكون على هيئة منظومات لها حدود وضوابط تؤدي بها مهمتها ؛ فإذا تجاوزت حدودها وقواعدها انهارت المنظومة أيًّا كانت ، وكيف أن الإنسان وحياته ومجالاته في الاجتماع وفي الحريات ليست استثناء ، وأن على الإنسان أن يعرف حدود هذه المجالات وقواعدها وضوابطها ، وإلا انهارت منظومة حياته وعمرانه وحضارته .

نعم يا بيدبا ؛ إذا أدركنا ذلك أدركنا أن من لا يعرف معنى الحرية ولا ضوابطها ، ومن يطلق لنفسه الحرية على

عواهنها طلبًا للذة والهوى ، ودون نظر إلى العواقب ، فإن مثله مثل الفراشة في حماقتها حين ترقص طلبًا لبهجة الضوء ، ولكن دون أن تفرق بين ضوء النور وحرارة النار ؛ فيكون مصيرها الهلاك والدمار .

ومثله أيضًا يا بيدبا مثل الحمامة الحمقاء في غفلتها وقصور نظرتها حين تطلب الطعام ، دون أن تنظر من أين تحصل عليه ، ولا كيف تطلبه ، فتلتقط حبات القمح من بين خيوط شباك الصياد ، فيكون لها في ذلك شرُّ المورد ومصير الهلاك .

قال بيدبا : صدقت أيها الشيخ الجليل وأصبت ، ففرق بين من يخطئ ومن يضعف ، وبين من يسعى مدركًا عامدًا إلى الفساد والشر والضرر طاعةً لهوى النفس ونزواتها ، دون رادع من خلق ولا مسئولية ولا ضمير ؛ لأن من طلب الفساد والشر والضر طاعةً لهوى النفس ونزواتها عامدًا متعمدًا دون رادع من خلق ولا مسئولية ولا ضمير ؛ فإنه في الحقيقة عدو للحياة والحرية ، وأن سلوكه ليس من الحرية ولا من الخير والحق في شيء ، بل هو الانحطاط والفوضى والتخلف والعدمية بعينها ، علم ذلك أم لم يعلم .

قال الشيخ : نعم أيها الحكيم بيدبا ، فإن كل شيء – كما ذكرت – في هذا الكون منظومة وبقدر ، فمنظومة الحرية مثل منظومة الذرة ومنظومة المجرة ، كلٌّ له حدوده وقواعده

وضوابطه ، وما من منظومة تتجاوز حدودها وتنتهك قواعدها وضوابطها إلا كان مصيرها الانهيار والدمار ؛ تلك سنة اللَّه في الكون ، جمادًا وحيوانًا وبشرًا ، وتلك هي دروس العبرة في حال الكون ونواميسه ، وفيما سلف من حال الأمم .

قال ابن بطوطة : أما أمر مجتمع جزيرة البنائين ، كما يهمك أن تعلم يا بيدبا ؛ فلم يكن وعيه بالمعاني وعلمه بالمقاصد الصحيحة هو العامل الأوحد أو الأهم ؛ بل كان العامل الأهم هو الفعل ، وهو الإرادة ؛ لأن العبرة في النهاية إنما هي في الفعل والممارسة وإتباع الأقوال بالأعمال ، فلا يكفي الفهم الصحيح لمعنى الحرية ، ولكن الأهم هو أن يمارس الأفراد والمجتمع فهمهم الصحيح لحريتهم ، ويأخذوا أنفسهم وسلوكهم بما وقر في نفوسهم وأذهانهم منها .

قال بيدبا : وكيف يتأتَّى ذلك أيها الرحالة الحكيم ؟

قال ابن بطوطة : هنا يأتي دور التربية والوجدان ، فإن الوجدان والسلوك هو تربية تبدأ باليوم الأول لولادة المولود ، إن لم يكن قبل ذلك فإن المولود في سلوكه ووجدانه ، وما يفعل وما يدع ، وما يحب وما يكره ، إنما يرجع في أساسه إلى تربيته صغيرًا كما عوده أبواه ، حتى يصبح ذلك السلوك لدى الفرد صفةً وخصلةً لا تفارق وجدانه ، وإن زاغ عنها في لحظةِ ضعفٍ وانحرافٍ فإن وجدانه وضميره يؤرقانه

ويدفعانه إلى ما استقر فيهما وما تعود عليهما في طفولته ونعومة أظفاره « فمن شبَّ على شيء شاب عليه » . وصدق الشاعر حين قال :

وينشأ ناشئ الفتيان فينا
على ما كان عوَّده أبوه

فالأسرة والتربية ، والوعي التربوي الوالدي ، هو السر الحقيقي في رقي المجتمعات ، وفي متانة بنائها ، فإذا سلمت الأسرة وحسنت التربية ارتقى الفرد والمجتمع في سلم النور والروح ، وقوي نسيج المجتمع ، وإذا تهدمت الأسرة وساءت التربية انحطَّ المجتمع في سلم الظلمة والعدمية والطين ، وانتهى إلى التمزق والضياع ، طال الزمن أم قصر .

قال ابن بطوطة يخاطب بيدبا : اذكر يا بيدبا أنه لا معنى للحياة دون حرية ، ولا وجود للحرية دون التربية والتعوُّد والانضباط وحس المسؤولية والمصلحة العامة .

قال بيدبا : لقد كان درس الحرية الذي لقنتني إياه أيها الشيخ الرحالة الحكيم من أهم الدروس وأثمنها في حياتي ؛ لأنها أزالت عن عينيَّ غشاوة ، وأزالت غبشًا عانى – وما يزال يعاني منه بحسن نية – الكثيرُ من البلاد والعباد ؛ مما أوقعهم ، وما يزال يوقعهم في الفوضى الاجتماعية ، وانتشار الرذائل ، وتحلُّل الأسر ، وتقطُّع الأواصر ، وأركسهم من آفاق

سلم النور والروح ليكونوا في أسفل درك الطين والغاب ، وهم بسبب هذا الخلط وهذا الغبش لم يتدبروا سنن الكون ، ولم يتَّعظوا بما أصاب سالف المجتمعات والأمم والحضارات التي انهار عمرانها ، وهُدِّمتْ حضارتها ؛ لأن بصائرهم تعمى - بسبب النزوات الطينية الحيوانية الضالَّة - عن إدراك أن ما أصاب تلك الأمم إنما كان في الجوهر بسبب انهيار القيم والأخلاق ، وتقطُّع الأواصر في تلك المجتمعات ، بعد أن كانت تلك الأمم والحضارات في أوج قوتها وحميَّتها وتكافلها وازدهارها ، وتلك سنة اللَّه في الخلق ، وإن ظنوا في غيهم وضلالهم أنهم يحسنون صنعًا .

عندها نظر الشيخ الرحالة عبر النافذة إلى أسراب طيور البجع والإوزِّ واليمام والحمام التي كانت تفرد أجنحتها المتلألئة عبر الأفق الوردي المضيء ، وترسل أنغام أصواتها الغَرِدَةِ الشجية في أرجاء الفضاء الرحب ، إلى حيث تنشد غايتها البعيدة في شوق ودأب وانطلاق وحرية .

عندها قال الشيخ الرحالة يخاطب بيدبا : انظر أيها الفيلسوف إلى الفضاء الرحب المضيء عبر النافذة ، واملأ ناظريك من ألوانه البديعة الزاهية ، وانظر إلى هذه الأسراب الجميلة من الطيور بأشكالها وألوانها وألحانها الجميلة المتناغمة ، واملأ ناظريك منها وهي تنطلق في شوقٍ وجِدٍّ

ودأبٍ وحريةٍ نحو غاياتها ، وكيف تراها تتشابه في أمور كثيرة برغم ما بينها من اختلافات كثيرة ؛ فتجد في ذلك جمالَ آيةِ التنوع والاختلاف ، وجمالَ تكامل التنوع والاختلاف في رفقة الطريق ووحدة الغاية والهدف .

نعم أيها العزيز بيدبا ؛ حري بكافة الشعوب والأمم والمخلوقات على اختلاف ألوانها وألسنتها وطاقاتها ، أن تؤلف غاياتهم النبيلة قلوبَهم لإغناء الحياة ، وإعمار الحياة ، في جِدٍّ ودأبٍ وتكاملٍ وسلامٍ ، وبكل الود والاقتناع والحرية ؛ لأن في الحرية تحقيق الذات ، و تحقيق خيار الفطرة السوية وأمانتها في قصد الحق والعدل والرحمة والتكافل والسلام ، وتلك ولا شك أغلى حصيلة ، وأثمن هدية ، وأسمى غاية تنالها المخلوقات في رحلة الحياة والوجود .

قال بيدبا : نعم أيها الشيخ الجليل دون العقل السليم والحرية الحقة فإنه لا حياة ولا وجود يستحق الكد والكدح والعناء والتعب .

قال الشيخ الجليل : اذكر معي يا بيدبا أنه لا يغرد إلا البلبلُ الحرُّ المحلِّقُ في الفضاء ، ولا يزأر إلا الأسد الحر الطليق في الغاب .

قال بيدبا : نعم أرجو أن نتعلم جميعًا مما أخبرنا به الحكيم ابن بطوطة عن أمر الحرية من دروس ، واقترانها

بالخير والعقل ، فلن تبقى أمة ، ولن يدوم عزها ، ولن تسهم في التسخير الخيِّر للكون ، وفي بناء الحضارة الحقَّة للإنسان ، ما لم تكن أمةً واعيةً حرةً خيِّرةً ؛ فتدرك المعنى الصحيح والغاية الصحيحة لحريتها ، وتعرف كيف تمارس هذه الحرية ، وكيف تربي أبناءها ، وكيف تعوِّدهم بالفعل على تمثلها وممارستها على الوجه الصحيح ، وأن يكون ذلك جزءًا ومنطلقًا أساسيًّا في منظومة قيمها وثقافتها وعمرانها .

٥
العزة والفلاح في حب الله

قال الشيخ الجليل ابن بطوطة ، وقد التأم الشمل للقاء مرة أخرى : وما هو الأمر الآخر الذي شغل بالك يا بيدبا ولم أحدِّثك عنه في أخبار أهل الجزيرة والوادي حتى الآن ؟ .

قال بيدبا : أما الأمر الآخر أيها الشيخ الجليل الحكيم ابن بطوطة فإنه يتعلق بما ذكرتَ لي في وصف أهل الجزيرة والوادي من أنهم يتمتعون بالشجاعة الأدبية ، وبحسٍّ مشاعر الأنفة ، والعزة والكرامة ، في مودة وتواضع لا يشوبهما كذبٌ ولا كِبْرٌ .

قال ابن بطوطة : نعم ذكرتُ ذلك لكَ يا بيدبا ، وهي صفات لن تخطئها عينك فيهم من أول وهلة. قال بيدبا : ولكنك أيها الشيخ الجليل لم تذكرْ ولم توضح لي مصدرَ هذه الشجاعة والأنفة والعزة والكرامة التي يتمتعون بها ، وسبب حيرتي في هذا الأمر أيها الشيخ الجليل أن جُلَّ الناس في زماننا قد افتقدوا هذه الصفات برغم كثرة حديثهم عنها ، وحبهم لها ، ورغبتهم في أن يتحلُّوا بها ، فالخوف والنفاق ، والكذب ، وحسُّ المذلة ، والخنوع والخضوع لكل ذي سطوة أو جاه أو مال ؛ أصبحتْ صفاتٍ يعاني منها كثيرٌ من الناس ، وكثيرٌ من الشعوب .

ولعل لديك أيها الشيخ الجليل شيئًا يوضح أمر هذه المعضلة التي حيرتني ، والتي أقعدت كثيرًا من الناس ، وكثيرًا من الشعوب ، وأورثتهم العجز والضعف والتخلف ، ومكنتْ من رقابهم عناصرَ الفساد والاستبداد ، وجعلت أدناهم وأعلاهم رهينةً في قبضة الأعداء ، وفريسةً سهلة للطامعين من كواسر الشعوب والأمم .

قال الشيخ ابن بطوطة : صدقت أيها الفيلسوف الحكيم بيدبا ؛ فهذه ولا شك قضية معضلة أخرى هامة ، وإنني – ولله الحمد – أجد في جعبتي حصيلةً طيبةً من التأمل بشأنها في عالم الإنسان ، لعل في ذلك إجابة عن تساؤلك وما يزيل بعض حيرتك .

السرُّ أيها الفيلسوف بيدبا في أمر حسِّ الكرامة والعزة عند بعض الشعوب والأمم ، وحسِّ الذل والمهانة والخضوع عند بعض الشعوب والأمم الأخرى ؛ إنما يعود في أساسه إلى الرؤية الكلية الكونية عند هؤلاء وعند هؤلاء .

فالأممُ والشعوبُ الحرة العزيزة السَّلامية الكريمة - أيها العزيز بيدبا - شعوبٌ تجعل الحرية والكرامة والقيم السامية التي تهفو إليها نفوسها وفطرتها أساسَ رؤيتها الكلية الكونية .

أما الأمم التي تتشوه فيها رؤيتها الكونية ومناهج فكرها ، والتي تفقد حريتها وحرية خياراتها ، على أي مستوى ، أيها العزيز بيدبا ؛ فإنها تفقد مشاعر العزة والكرامة ، ولا تجني مهما تحايلت في تزييف القول والحجة إلَّا مشاعرَ الذل والمهانة ، وينتهي أمرها في جميع علاقاتها ، وفي كافة تنظيماتها ، في نهاية المطاف ، إلى الفساد والاستبداد .

أصحابُ المصالح الخاصة ، والمفسدون والمستبدون يا بيدبا ؛ لا يألون جهدًا في تشويه الرؤية والفكر ، وتزييف القول ، وتضليل البسطاء ، وقهر المخلصين لسلب حق الحرية من أبناء الشعوب ، وإرغامهم على قبول حقِّ وصايتهم وولايتهم عليهم بأسماء وعللٍ لا تحصى ؛ لتمكين الاستبداد والفساد ، والاستجابة لنوازع الأثرة والتسلط ، ولخدمة المطامع والمصالح الخاصة بهم .

كثيرٌ من الشعوب الذليلة اليوم يا بيدبا ، والتي تتوسط قلب الأرض ؛ كانت شعوبًا سَلامية حقًّا فيما يروى لنا من تاريخها وسيرها أيها الفيلسوف بيدبا ، وذلك حين كانت تتمتع بالرؤية الكلية الصحيحة ومناهج الفكر السليم ، وتتمتع بالتالي بالحرية وكرامة العقل وحق الخيار ، على تفاوت في عصورها السالفة ؛ ولذلك كانت تتمتع - على تفاوت - بقدرٍ من حسٍّ العزة والكرامة والقوة والمبادرة والإبداع ، وحسٍّ المسؤولية والمصلحة العامة تجاه ذاتها ، وتجاه كل من حولها ، وهو يفسر ما تمتعت به هذه الجزيرة ، وهذا الوادي ، من صفات العزة والقوة والكرامة ، وما حققته وبنته بسواعد أبنائها وعقول علمائها من العمران والحضارة .

اذكر يا بيدبا أن الذوات السوية بفطرتها تهوى الحق والعدل والرحمة والأمن والسلام ، وتطلبها ؛ ولذلك فهي بإرادتها الحرة وتدبُّر عقولها الناضجة « تعبِّد » نفوسها ومؤسساتها وأنظمتها « للحق » و« العدل » و« الرحمة » وتطلب « الأمن » و« السلام » ، وهي نفوس بفطرتها السوية تكره في جميع مناحي حياتها : « الزيفَ » و« الباطلَ » و« الظلمَ » و« القسوةَ » و« العدوانَ » و« الفسادَ » وتبغضها ، ولا تدع لها مجالًا لأن تفسد عليها حياتها .

إن بغض الرحمن للظلم والفساد والقسوة والعدوان

وصفات الشر والأشرار المُصرين عليه ظاهرًا وباطنًا ليس بغضًا للأخيار المحبين للخير والحق والذين إذا زلوا أسفوا وتابوا ولم يصروا على ما فعلوا وعادوا من قريب .

النفوس والشعوب والأمم السوية يا بيدبا هي نفوسُ شعوب وأمم تحب « اللَّه » بفطرتها ، وتكره « الشيطان » بفطرتها ؛ لأن « الحق » و« العدل » و« الرحمة » و« السلام » هو « اللَّه » ولأن « الزيف » و« الباطل » و« الظلم » و« العدوان » هي من الشر ومن الشيطان ، ومن النفس الأمارة بالسوء ، أمَّا الزلات والهفوات فرحمة الرحمن الرحيم تقبل التوبة عنها ، وتفرح بها ، وتغفر زلاتها ، وتمحو سيئاتها ، وتضاعف حسناتها .

وإذا أدركنا يا بيدبا من هو اللَّه ؟ وماذا يمثِّل ؟ وأدركنا من هو الشيطان وماذا يمثِّل ؟ أدركنا أن جُلَّ البشر على وجه الحقيقة يحبون « اللَّه » ويكرهون « الشيطان » على الرغم من أنهم لا يعلمون ذلك ؛ لأن رؤية كثير منهم قد تشوَّهت وأصبح « اللَّه » عندهم قوة طاغية ، ساحقة ، ماحقة ، ترقب خطواتهم وتترقب أخطاءهم وزلاتهم ، في شدة وقسوة ، وإنما كان ذلك يا بيدبا بسبب تدهور فكر هذه الأمم ، وبسبب شهوات أصحاب السلطة ونوازع الاستبداد في نفوسهم ونفوس أصحاب المصالح الخاصة من حولهم ؛ ليسترهبوا شعوبهم ويذلوا نفوسهم ، وليتمكنوا

من إخماد طاقات العزة والكرامة فيهم ، وتمكين العدوان على حقوقهم ومقدراتهم ، ولا يكون ذلك يا بيدبا إلا بتشويه رؤية هذه الشعوب ، وخلط الخطاب ، فلا يكون إلا خطاب التهديد والوعيد والتخويف الموجَّه إلى المعتدين والمعاندين وأصحاب النفوس الشريرة التي تهوى الشر والظلم والباطل والقسوة والعدوان وتتبع الشيطان ، وليصبح هذا الخطاب هو الخطاب الموجَّه إلى نفوس المؤمنين التي تهوى قيم الحق والعدل والرحمة والسلام التي هي صفات « الرحمن » وتتطلع إليها ، حتى ترهب وتُصاب بداء الخوف والهلع والرهبة ، ويأخذها الإحباط واليأس ، ولا ترى من نفوسها إلا الهفوات والزلات والعورات ، وتخضع لكل ذي سطوة وسلطان .

إن من المهم أن تدرك يا بيدبا ؛ أن من يكره أو يخاف يبتعد ويدبر ، وأن من يحب ويرغب يقترب ويقبل ، وما من أمة يا بيدبا تقوى وتنهض ، وتبني وتنجز ، إلا أن تكون قد بنتْ رؤيتها ، وبنتْ أساس كيان مجتمعها ، على الحب والرغبة ، وما من أمة تمتلئ نفوس مواطنيها بالخوف والرهبة إلا كان مصيرها العجز والضعف والذلة والهوان .

لذلك يا بيدبا يجب أن يكون حفظ الأمة ، وحفظ أنظمتها وشرائعها ومؤسساتها ، وحمايـة حقوقها ومصالحها ، من أهم مقاصد حياة الإنسان والاجتماع

الإنساني ؛ الذي دونه لا يحمى الدين ، ولا يحمى المواطنون ، ولا تحمى الحقوق والأعراض .

إن الأمم التي تشوهت رؤيتها الكونيـة يا بيدبا غاب عن رؤيتها وفكرها البُعد العام والحضاري في وجودها الإنساني ، وانحصر اهتمامها بالجوانب الفرديـة ؛ ليصبح الإنسان في هذه المجتمعات دون غايـة إلا البقاء الفردي ، وتدبير لقمـة العيش بأقل الجهد حتى يأتي الموت .

لقد تحولت يا بيدبا هذه الأمم إلى مجرد أفراد يتنازعون ويتصارعون على فتات العيش البائس ، ويتحكَّم الطغاة والمستبدون والنخاسون في رقابهم ؛ لأن الضعف والخور قد نخر في نفوسهم ؛ لأنهم ليسوا إلَّا مجرد أفراد أنانيين متصارعين ، فهم مجردون من قوة الأمة والجماعة ، وفاقدون لطاقـة العلم والحضارة .

يا بيدبا لا فرد دون حس الأمـة ، ولا أمة دون سلامة بناء الفرد ، والفرد يا بيدبا مسؤول عن حفظ الأمة ، والأمة يا بيدبا مسؤولة عن حفظ الفرد وتلبية احتياجاته .

إن سالف الأمم والشعوب السلامية العزيزة الكريمة كانت تستمد - كما تعلم يا بيدبا - عزتَها وكرامتها وشجاعتها من فهمها الصحيح لعلاقتها « باللَّه » أي : من حبها للَّه « الحق » و« العدل » و« الرحمة » و« السلام » ، وبذلك

عبَّدت نفسها بإرادتها الحرة لقيم الحق والعدل والخير التي تهفو إليها فطرتها الكامنة في نفوسها ، أي : إنها بهذه الرؤية القائمة على الحب ، وبهذه الفطرة ، هي نفوسٌ معبَّدةٌ ، لا مستعْبَدَةٌ ، قد حررت نفسها من الخضوع للشيطان ولكل قوى الشر والظلم والفساد والعدوان ، أي : إنها قد حررت نفسها من كلِّ شيء شرير وباطل ، ولم يبق في قلبها وضميرها وفطرتها إلا حبها للحق والعدل والرحمة والسلام ، أي : حب اللَّه ؛ أي : إنها حققت الحرية الكاملة ، ولم يبق فيها إلا مشاعر الحب لتلك القيم والمعاني السامية ، التي هي حبُّ اللَّه ، والتي هي لبُّ صفات اللَّه ، وتحقيقها وتمثلها في النفوس هو الغاية من الحياة والوجود .

وحب اللَّه ، وحب صفاته الحسنى ، هي منبع أحاسيس ومعاني حبٍّ ورغبةٍ ، ولا علاقة لها بأحاسيس المذلة والمهانة والكره أو معانيها ، وما ينتاب المحب من مشاعر الخشية والخوف من اللَّه فإنما هي مشاعر خوف المحب من غضب حبيبه ، وخشيته من هجره ، وهذا هو خوف العباد المعَبَّدين ، لا خوف العبيد المستَعْبَدِين .

والتعبيد : هو جماع أحاسيس بنَّاءة إيجابية لا تعبِّر إلَّا عن معاني الحب والاقتناع ، وهي أحاسيس تملأ النفوس بالقوة والعزة والكرامة والتحرر الحق من كل سلطة استعباد ، ومن كل إحساس بالمذلة أو المهانة ، إنها أحاسيس مملوءةٌ

بالحب للّه ، ولكل معاني الحق والعدل والعزة والكرامة .

إن من المؤسف أيها الفيلسوف بيدبا ؛ أن بعض تلك الأمم والشعوب في هذا الزمان أمكن تضليلها بكثير من حسن النية منها ؛ بحيث ظنت أنها تحررت حين تخلّتْ طواعية عن حق حرية الخيار ، وأوكلت مصائرها لكثيرٍ من الإجازات الأكاديمية العقيمة ، وللعديد من الولايات والوصايات المغرضة الزائفة ؛ لتلغي عقولها ، وتمكّن من نفوسها مشاعر « الاستعباد » و« القصور » ، ومشاعر العجز والحيرة والمهانة والمذلة ، (والمذلة غير التذليل) ، وأحاسيس الخوف والرهبة ؛ فتمكّن بذلك من رقابها تحالفاتُ مراكز القوى والمصالح الخاصة في مجتمعاتها ، وقوى أصحاب المطامع والتسلط والاستبداد في مؤسساتها .

وهناك أيضًا أيها الفيلسوف بيدبا أممٌ وشعوبٌ أخرى ظنت أنها حررت ذاتها حين لم تعرف حقيقة معنى حريتها ، وآفاق ومدى حدود منظومة تلك الحرية في فطرتها ، وغاية وجودها ، ومعنى حياتها ، فأخضعت نفوسها لنوازع النزوات والشهوات والمطامع الطينية الحيوانية في كيانها دون وازع أو رادع من قيم أو خلق أو مسؤولية ، فهم لا يأبهون إلا لما تمكنهم منه القوةُ والسطوة ، وتدعوهم إليه الرغبة والشهوة ، وتدفعهم إليه كثيرٌ من النزوات الضارة المفسدة .

وهذه هي الأمم والشعوب المادية الكواسر في عالم اليوم ، والتي تعيش في تيه وغيبة روحية ؛ لا تعلم لها وجهة من الحياة ، ولا غاية من الوجود ، إلَّا ما تشغل نفوسها به ، وتدمن عليه ، من ملذات الحس ، وهي بذلك ليس لها يا بيدبا على وجه الحقيقة رؤية كونية ، ولم تعرف حقًّا معنى الحرية ، ولا غايتها ، واستعبدتها شهواتها ونزواتها وقوى الشر والانحطاط الطيني فيها ، وبذلك انهارت القيم والأخلاق في كياناتها ، وما لها على المدى إلا الضياع والخسران ؛ برغم ظنها أنها بسطوتها المادية تحسن صنعًا ، فتلك سنة مَن خلا قبلها مِنَ الأمم التي ضلَّتْ طريقها ، على الرغم من كل ما حققته – لبعض الوقت – من قوة مادية ؛ فتساقطت قيمها ، وتفسَّخت أواصرها الأخلاقية والاجتماعية ، ودالتْ دولُها ، وزال عنها عزُّها وجاهُها ، وتهدَّم عمرانُها ، وانهارتْ حضاراتُها .

أيها الفيلسوف بيدبا ؛ إن ماذكرته لك هو الفهم الصحيح فيما أرى للحرية بما علمته من معنى الحياة المثمرة ، وماخبرته من سيرة سالف العصور والأمم ، وبذلك كان الفهم الصحيح للرؤية الفطرية الكونية السليمة لدى شعوب جزيرة البنائين هو مصدرٌ من أهم مصادر قوتهم ونهضتهم ، ومصدر ذلك الإحساس الشريف بالعزة والكرامة والشجاعة لديهم في نفوسهم ، والذي فجَّر طاقة الإبداع والإعمار

لديهم ، ومكَّن طاقة التآزر والتكافل بينهم ؛ لما كان يدفعهم ويحركهم من مشاعر الحب والود للَّه « الحق العدل الرحمة السلام » ، ومن مشاعر الكره الصادق الخالص للشر والضر والظلم والعدوان والفساد ، وذلك هو أيضًا مصدر التناغم والتكامل مع كافة الكائنات في الكون لديهم ، ولدى مَنْ سلف ممن كان على شاكلتهم مِنَ الشعوب والأمم .

أيها الفيلسوف بيدبا هذا هو الدرس الذي تحتاج إليه الأممُ والشعوب اليوم ؛ لتستعيد رؤيتها الكونية الصحيحة ، ومعنى حريتها الحقيقية ، ومعنى خيارها الصالح النافع ، ولتستعيد غاية وجودها ، ومعنى حياتها ، ودليل صلاح عمرانها ، وتوازن حضارتها ، وسلامة علاقاتها ، وإحلال العدل والسلام بين شعوبها ، والذي تتخلص به من شيطانية قوى الشر والفساد والظلم والعدوان في مجتمعاتها ، وفي بناء حضارتها السَّلامية الخيرة .

دون ذلك - أيها الفيلسوف بيدبا - ستبقى الأمم والشعوب في أحقاد وصراعات بين معتدٍ وضحية ، وبين قوي متجبر وضعيف منهزم خائرٍ ، وبين غني مبذر وفقير معوز ، وكلهم على وجه الحقيقة ضحايا ما يستعبدهم من قوى الشر والتظالم والقسوة والفساد الحيوانية الطينية في كيانهم .

تابع الشيخ ابن بطوطة حديثه مخاطبًا بيدبا : أما وقد

سألت يا بيدبا عن الحرية فإن هناك صفة أخرى مهمة تتعلق بالحرية وممارستها الناجحة في المجتمع ، وتُعَدُّ أيضًا من أهم ما يتميز به أهل الجزيرة ، ولا يمكن لأمةٍ أن تتقدم وتقوى وتسود ما لم تتمتع بتلك الصفة .

قال بيدبا : ماهذه الصفة أيها الشيخ الجليل ؟ فإنني في شوقٍ إلى معرفتها .

قال الشيخ : هذه الصفة أيها الحكيم بيدبا هي « حسُّ المسؤولية » والحرص على « المصلحة العامة » ؛ لأنه إذا لم يكن حسُّ المسؤولية في صميم وجدان كل مواطن ، وأن يعرف أن مصلحة الفرد هي في الحقيقة من مصلحة الجماعة ، وأن مصلحة الجماعة هي في الحقيقة من مصلحة الفرد ، فلا مجال عندها من الناحية الاجتماعية ، والناحية العملية لترابط المجتمع وتكافله وتسانده ؛ لأن ذلك هو الأصل في خطة الخلق ومعنى الوجود ، فلا وجود لفرد دون رعاية أسرة ، ولا أسرة ولا رعاية دون مجتمع وأمة ، ولا أمة دون مجتمعٍ وعمرانٍ ومؤسساتٍ وحضارةٍ وثقافةٍ ، ولا أمة ولا مجتمع ولا عمران ولا حضارة ولا ثقافة دون وجود فرد سويٍّ حرٍّ عزيز قادر ، فالفرد والأمة في بناء الأمم الراقية وثقافتها وتربيتها الصحيحة وأنظمتها ومؤسساتها وأدائها هما صنوان وتوأمان لا ينفصمان ، إنه بنيان مرصوص يشد بعضه بعضًا ، الفرد فيه مسؤول عن حفظ الأمة ، والأمة

مسؤولة عن حفظ الفرد وتلبية حاجاته .

يا بيدبا يجب أن نحرص في تربية أبنائنا حتى يحسنوا أداء أدوارهم في بناء أسرهم التي هي أساس بناء المجتمع ، والتي هي محضن بناء المواطنين ، وهي تربة سعادة نشأتهم وبناء قدراتهم على جوهر طبع الأمومة والأبوة في نفوسهم ، والتي هي الحب والتضحية لدى الأم ، والتي هي العطاء وحس المسؤولية لدى الأب ، وإذا ضُيِّع هذا الجوهر في طبائع الآباء والأمهات ، وزُيِّفَتْ الأدوار يا بيدبا تهدَّمت الأسرة ، وشقي الآباء والأبناء معًا ، وزالت روابط الحب وصلات التراحم ومشاعر الإخاء من المجتمعات ، وليس إلا عنصر الوقت لتتسع الشروخ في أساس بناء المجتمعات حتى تنتهي إلى الفناء والتهدم والضياع .

يا بيدبا إن القاصرين هم الذين لا يرون من حياتهم إلا أنفسهم وما يركضون خلفه من متاع ليستأثروا به ؛ فهم في الحقيقة عجماوات فردية تمثل عبئًا على الحياة ، وهم بذلك مرضى في أممهم ومجتمعاتهم .

قيمة الفرد يا بيدبا في الحياة ليس فيما يملأ به بطنه ، ويزركش به صدره ، ويغلو به لسانه ، لكن قيمته في هذه الحياة ، وفي عالم الروح من بعد ، هي فيما يسعى به الفرد من الخير والنفع والإتقان في أدائه ، وفي علاقاته : في أهله ،

ومجتمعه ، وأمته ، وإنسانيته .

بالسعي والعطاء والتضحية يثمر الفرد ، وتزهر طاقاته ، وتسمو صفاته وتفنى وتعتز نفسه وتزكو سيرته ويعلو شأنه ، ويحقِّق معنى وجوده وغاية حياته في هذه الحياة الدنيا ، وفي عالم الروح .

يا بيدبا يخطئ من يظن أنه جاء إلى الحياة فردًا ، ليحيا فردًا ، ويموت فردًا ، إن كل من يأتي إلى الحياة يأتي ابنًا لأبوين ، وعضوًا في مجتمع ، ولبنة في أمة تكفله وتصونه وتحميه ، وعليه إذن أن يسعى لخيرها ونفعها وحمايتها .

تَعِسَ البشر ، وتعست الأمم التي تتفكك روابطها ، وتنحط علاقات أبنائها ، ويغيب في حياتها البُعد العام وحس مسؤولية الجماعة والإنسانية ؛ بحيث لا يجمع أبناءها وأعضاءها جامعُ إخاء البشر ، وكرامة الإنسان ، وتضامن الاجتماع ، وعضوية المواطنة ، وسمو الغايات والقيم والمبادئ .

هذه المجتمعات يضيع فيها معنى وجود الإنسان ، ومعنى حياتهم ، وقدرة عطائهم ؛ فتنحط بذلك حياتهم وقيمة اجتماعهم وعطائهم لتصبح دون قيمة اجتماع العجماوات وحياتهم ، وهم بهذا يكونون على وجه الحقيقة ، أسوأ حالًا من المجتمعات المادية الحيوانية التي تجتمع وتتكافل على

عنصرية القبيلة والقومية ، شأنها في ذلك شأن الكواسر ظلمًا وعدوانًا وقسوة وكيلًا بمكيالين لمن سوى قومهم من بني البشر .

لذلك يا بيدبا يجب أن يكون حفظ الأمة ، وحفظ أنظمتها وشرائعها ومؤسساتها ، وحماية حقوقها ومصالحها ، من أهم مقاصد حياة الإنسان والاجتماع الإنساني ؛ أنه دون الأمة ومؤسساتها حرة عزيزة موحدة قادرة قوية ، سليمة البنية والرؤية لا يمكن أن يحمى الدين ، ولا أن يحمى المواطنون ، ولا أن تحمى الحقوق والثروات والأعراض ، فلا فرد دون أمة ، ولا أمة دون فرد ، كيانات لا تنفك ، بعضها من بعض .

إن الأمم التي تشوهت رؤيتها الكونية يا بيدبا غاب ، إلى حد بعيد ، عن رؤيتها وفكرها البُعد العام والحضاري في وجودها الإنساني ، وانحصر جل اهتمامها بالجوانب الفردية ؛ ليصبح جمهور الإنسان في هذه المجتمعات دون غاية إلَّا البقاء العجماوي الفردي ، وتدبير لقمة العيش بأقل الجهد حتى يأتي الموت .

لقد تحولت يا بيدبا هذه الأمم إلى مجرد أفراد يتنازعون ويتصارعون على فتات العيش البائس ، ويتحكم الطغاة والمستبدون والنخاسون في رقابهم ؛ لأن ضعف هذه

المجتمعات قد أضاع فيها معنى وجود الناس ومعنى حياتهم وقدرة عطائهم ، فانحط عطاؤهم واجتماعهم وأصبحت قيمهم دون قيمة اجتماع العجماوات وحياتها .

هذا هو الحق المحض يا بيدبا ، وسواه قولٌ زائفٌ باطلٌ ، لا تجني الشعوب والأمم من ورائه إلا الفاقة والضعف والتمزق والتخلف والضياع والخراب .

نظر الشيخ الرحالة إلى بيدبا نظرةً باسمة ، فيها شيء من التأمل ، وقال له : المهم يا بيدبا أن تعي ما تدارسناه من أمر الحريـة ، ومن أمر المسؤولية ، ومن أمر المصلحة العامة ، ومن أمر حفظ الأمة وحفظ كرامتها وأمنها وسلامتها وتنمية قدراتها وعمرانها وأن تبذل غاية الجهد مع الكبار والصغار ، ومع الآباء والأبناء ؛ حتى يفهموا ويفهم الديك ! .

نظر بيدبا إلى الشيخ الرحالة حائرًا متسائلًا عن هذا الديك الذي يجب أن يفهم قضايا الحريـة والمسؤولية والمصلحة العامة ! ! وقال : أيها الشيخ الجليل ؛ إن لي خبرة عظيمة بالحيوانات كما تعلم ، ولا شك أنك قد اطلعتَ وكثير من الناس على ماكتبتُه من قصص على ألسنة الحيوانات ، ولكنني لم أسمع قط عن هذا الديك الذي يستطيع أن يفهم ، والذي يجب أن يفهم ، فهلَّا أفصحت لنا عما تقصد ؟ .

عندها ضحك الشيخ حتى كادت عمامته أن تسقط من على رأسه ، وهو يرى الحكيم بيدبا يأخذ الأمر مأخذ الجِدِّ لا مأخذ الفكاهة والدعابة ، وقال لبيدبا : عجيبٌ أمرك يا بيدبا ! فكيف وأنتَ صديق الحيوانات ألا تكون قد سمعت عن هذا الديك الذي جرت بسيرته الركبان ، وأمتعت قصتُه السمار والعربان .

قال بيدبا : نعم أصدقك القول أيها الشيخ الجليل بأنني لم أسمع قبل اليوم عن هذا الديك ! فما قصته ؟ لقد أثَرْتَ فضولي بغرابة ما تقول ، وبكثرة ضحكك حين ذكرتَ هذا الأمر .

استعاد الشيخ سمتَ الجِدِّ في وجهه ، وقال : يحكى يا بيدبا ؛ أن رجلًا أصابه مرض نفسي عضالٌ ؛ حتى ظن نفسه حبة قمح لو رآها ديكٌ التقمها وأكلها ، فأخذه أهله إلى حكيم نطاسي يعالجه ، ويزيل الوهم من نفسه ، وجَدَّ الطبيب الحكيم في علاجه شهورًا ؛ حتى تمكَّن من إزالة وهمه وإقناعه بأنه إنسان كامل الإنسانية ، وليس حبةَ قمحٍ يأكلها الدجاج والديكة ، وأبدى الرجل بعد طول علاج اقتناعَه بما ذكره الطبيب الحكيم .

وليتأكد الطبيب وأهل المريض من زوال الوهم ونجاح العلاج ، دعا الطبيب بديكٍ ذي عُرف أحمر وريش ملون يسر الناظرين ، وطلب من مساعده أن يدخل الديك

عليهم، وما إن أُدْخِلَ الديكُ إلى الغرفة ، وأدار عرفه الأحمر يمنةً ويسرةً ، وأجال عينيه الحمراوين في أرجاء الغرفة ؛ حتى هرول الرجل المريض خائفًا مضطربًا مختبئًا خلف مقعد الطبيب .

أخذتِ الطبيبَ الحيرةُ من تصرف المريض ، وأمر بإخراج الديك ، وطلب من المريض أن يخرج من مخبئه بعد أن طمأنه إلى أن الديك قد خرج .

خرج الرجل من خلف المقعد ، وجلس إلى مقعده ، ولما هدأت نفسه سأله الطبيب قائلًا : لماذا قفزت مختبئًا حين أُدخِلَ الديك ، على الرغم من أنك قد اقتنعت من قبل بأنك لست حبةَ قمحٍ يلتقطها الديكة ؟ .

قال الرجل المريض : نعم أيها الطبيب ؛ أنا مقتنعٌ ، وأنتَ مقتنعٌ ، ولكن مَنْ يُقْنِعُ الديك ؟

أدرك بيدبا ما يرمي إليه الشيخ من سرد هذه القصة الطريفة ، ومغزاها ، وضحك لطرافتها ؛ حتى كاد أن يقع من على كرسيه ، وقال للشيخ :

أدركتُ الآن مغزى قولك أيها الشيخ عن مدى الجهد الذي يجب أن نبذله حتى يفهم الناس ما نرمي إليه ، وحتى يغيروا ما نُشَوِّوا فيه ، وما تعودوا عليه ؛ فمن أصعب الأمور أن تغير النفوس ما اعتادتْ ، وأن تتذوق طعم ما لم تألفْ ،

ولكنها حين تدرك حقيقة معنى ما قُدِّمَ لها ، وفائدته ، وتتذوقه ، فإنها تُقْبِل باقتناع وقوةٍ وحماسةٍ ؛ ولاسيما الشبابُ منهم ، وعندها تتقد الرؤية الصحيحة في كيانهم « كالنار في الهشيم » كما يقولون .

٦
يوم أمطرتِ السماء ذهبًا

عند هذا الحد أطرق الشيخ الجليل رأسه ، ولملم أطراف ثيابه ، وأمسك بعصاه ؛ إيذانًا بقيامه توديعًا لضيفه بيدبا ومن حضر معه من طلاب العلم والمعرفة ؛ الذين تطلعوا للاستماع إلى ما يدور من حوار بين حكيمين من حكماء العصر تشدُّ الرحال لرؤيتهم ، والاستماع إلى حكيم أقوالهم ، والذين لم يكفوا بعد عن ضحكاتهم ؛ لما أمتعهم به الشيخ في هذا المجلس من أمر الديك .

عندها قال بيدبا يخاطب الشيخ ابن بطوطة : أيها الشيخ الجليل ؛ لقد أمتعتنا وأفدتنا بحديثك ، ونحن نعلم أننا أخذنا الكثيرَ من وقتك ، ولكننا نعلم أيضًا مدى كرمك وحبِّك لطلاب العلم والحكمة والمعرفة ، وأجد أنني أقصر في حق نفسي ، وحق هذا الجمع من طلاب العلم والمعرفة ، ومن سوف يتلقى عنهم ويفيد من علمهم ، إذا أنا لم ألقِ

عليك سؤالًا مهمًّا مازال يدور في رأسي ويحيرني .

قال الشيخ ابن بطوطة : كفاك مقدمات يا بيدبا ، وأفصحْ عما تريد أن تقول ، فالجميع قد أخذه التعب ، ولستُ أنا أو أنت أقلهم نصيبًا ، كما أنك تعلم أنه قد حان موعد الرحيل والفراق في وقت قريب ، وإن كان ما يهوِّن أمر فراق مَنْ نحب من طلاب العلم والحكمة والمعرفة في هذه البلاد ، وأنتَ على رأسهم يا بيدبا ، أنني سأتجه في رحلتي ومقصدي نحو الجنوب ، نحو أرضٍ وشعوبٍ أُشْرِبْتُ حبَّها والألم لما أصابها ، ولما حلَّ بها ، والأمل عندي كبير في إصلاح أحوالها على سُنَّةِ ما كان من سالف أمرها ؛ إن بذل المفكرون والتربويون والإصلاحيون خالصَ جهدهم ؛ لتعود تلك الأمة وتلك الشعوب أمةً وشعوبًا سلاميةً ، تتبع سبل الحق والعدل والرحمة والعزة والسلام ، وتنأى عن سبل الباطل والظلم والاستبداد والفساد ، وتبني مجددًا على هذه الأرض حضارةَ العدل والسلام ، وعمران الخير والتكافل والشورى والوئام .

قال بيدبا : يا سيدي الجليل سيكون ما أطرحه عليك بإذن اللَّه هو آخر ما نرجوه من فضلك ؛ لأنه - كما ذكرت لك - هو أمر حيَّرني وحيَّر كلَّ مَنْ في هذا المجلس ، وما يزال .

قال الشيخ ابن بطوطة : أفصح يا بيدبا عن هذا الذي

يهمك ويحيِّرك ، وتريد أن تزيد به تعبنا ، أو أن تؤخِّر من أجله رحيلنا ، واعلم يا بيدبا أنه أيًّا كان ما تسأل عنه فسوف يكون حديثي بشأنه لما نالني من التعب في وقت مناسب آخر .

قال بيدبا : الأمر الذي أهمَّني وحيَّرني هو أمر يحيِّر كثيرًا من الناس والشعوب مثلنا ، وكلما حاولوا فكَّ طلاسمه يزداد استعصاءً ، ويضحى كالسراب أشد بعدًا ، وأصعب فهمًا ومنالًا .

قال الشيخ ابن بطوطة : أفصح يا بيدبا عما تقصده من أحاجيك وطلاسمك فقد أثرت الفضول في نفوسنا عن هذا الأمر وأهميته وصعوبته .

قال بيدبا : أنتَ تعلم أيها الشيخ الجليل أن إيمان الناس وعقائدهم هي القاعدة التي يقوم عليها كيانهم وكيان مجتمعاتهم ، فإذا تناقض حسهم مع إيمانهم وعقائدهم اهتز كيانهم ، وأفسد الشكُّ عزائمهم ، وأوهن همَمَهم ، وزعزع التناقضُ بناءَهم .

قال الشيخ ابن بطوطة : صدقتَ يا بيدبا ؛ فإن الإيمان والعقيدة يجب أن يُمَثلا القاعدة الصلبة المستقرة ، والرؤية المضيئة الكاشفة المحركة والمعبرة عما يحسه ويلمسه الإنسان في واقعه وحياته ، وإلا كانت العاقبةُ ضبابًا في

الرؤية ، وحيرةً في النفس ، وضعفًا وخورًا في العزيمة ، ولكن كيف حدث ذلك ؟ وما هو وجه الإشكال الذي سبَّب مثل هذه الحالة لدى من تشير إليهم من الشعوب أيها الحكيم بيدبا ؟ .

قال بيدبا : المعضلة التي أشير إليها أيها الشيخ الجليل ؛ هو أن هذه الشعوب أحلَّت القولَ محلَّ العمل ؛ إيمانًا واكتفاءً منها بأن كثرة الدعاء والشكوى إلى ربها سوف يرفع عنها ، دون جهدٍ أو سعي جادٍّ ، ما يصيبُها من النوازل والمظالم والآفات والأمراض ، والمشاهد والمحسوس أن اللَّه لا يستجيب لها ، وأن المظالم والنوازل والآفات تتزايد وتتوالى عليها ، مهما طال دعاؤها ، وازداد تضرعها على مر السنين والعقود ، بل والقرون ؛ وذلك أيها الشيخ الجليل ما يجعل الواقع والمحسوس يناقض عقيدة إيمانهم في أمر الدعاء إلى اللَّه خالقِ كل شيء ، والقادر على كل شيء ؛ ليرد عنهم الغوائل والمكائد والنوازل والمظالم والآفات .

والسؤال أيها الشيخ ابن بطوطة كيف يحلُّ هؤلاء الناس الإشكال بين إيمانهم بقدرة الخالق على أن يعين الإنسان ، ويفرِّج كربه ، وبين مضي السنين والعقود والقرون دون أن يستجيب اللَّه دعاءهم وتضرعهم ، بل إن الأمور تزداد سوءًا ، والكرب يشتدُّ وطأةً ، والمظالم تتعاظم ، دون أمل في عون أو إنصاف من سادتهم وكبرائهم أو أعدائهم .

قال الشيخ ابن بطوطة : لقد سألت يا بيدبا عن أمرٍ عظيم يستحق أن أجلس إليك وإلى إخوانك وأخواتك هذا المساء ؛ لأحدثكم بشأنه ، ولا أؤجله إلى الغد ، فأجيب سؤالكم دون أن أؤجل موعد رحيلي إن شاء اللّه ، فقد آن الأوان ، واستبد بقلب الرحالةِ إلى الجنوبِ عاصفٌ من الشوق والتحنان ؛ ولذلك فأنا أدعوكم لتناول الغداء في داري ، نخلد بعده إلى شيء من الراحة إلى ما بعد صلاة العصر ، ثم أجلس معكم بعدها للنظر فيما استغلق عليكم من أمر الدعاء وقلة الاستجابة لدى من تَعْنُونهم من الشعوب المضطهدة المستضعفة في عالم الكواسر المادية .

عند هذا الحد قام المجتمعون إلى غدائهم وصلاتهم وراحتهم ، وهم في شوق إلى صلاة العصر وإلى حديث الشيخ الرحالة الموعود .

بعد أن تناول ضيوف الشيخ ابن بطوطة غداءهم ، وأخلدوا إلى شيء من الراحة قاموا إلى صلاة العصر يؤمهم مضيفهم الشيخ ابن بطوطة لعلمه ومكانته ؛ ولأنه صاحب الدار ، ولا يُؤَمُّ المرءُ في داره كما نعلم إلا بإذنه .

تحلق طلبة العلم حول الشيخ ابن بطوطة يتقدمهم الفيلسوف الحكيم بيدبا ؛ ليستمعوا إلى الشيخ الرحالة في آخر أحاديثه الحكيمة إليهم في أمر عظيم يهمهم جميعًا .

تبسَّم الشيخ في وجوههم ، وتوجَّه بالحديث على عادته إلى صديقه الحكيم بيدبا قائلًا :

جزاك اللَّه يا بيدبا عن إخوانك خيرًا ؛ بما طرحت من سؤال ، وأثرت من إشكال ، لعل في حديثنا عنه شيئًا من الصواب يحل الإشكال ، ويزيل غبشه ، وينفع به الناس ، فهيَّا أعرني يا بيدبا سمعك وسمع إخوانك ؛ لأن سوء فهم أمر الدعاء أضَرَّ كما ذكرتَ بكثير من الناس والشعوب ، وغيَّب وعيهم ، وأوهن عزيمتهم ، وجعل الناس فريقين : أحدهما : منكرٌ له ولأسراره القدسية ، وآخر : قاعدٌ يجعله بديلًا عن جِدِّ السعي والعمل وتسخير السنن والنعم .

إن حقيقة الأمر أن الدعاء يا بيدبا ليس فيه شيء مما يظنُّ من تفاوت الإيمان والحس ، ولكنه خطأٌ وخلطٌ في الفهم ، أورثه انحراف الفكر وتخليط الرؤيـة ، بما توارثته تلك الشعوب من بعض التراث الغثِّ ، ومن تشوه مناهج الفكر ، ومن تدليس أصحاب الأهواء والمطامع ؛ فكان تشويه الرؤية ، وتشويه مناهج الفكر ، وما يترتب على ذلك من مناهج التربية والتعليم هو وسيلتهم لإخضاع هذه الشعوب لأطماعهم واستبدادهم وتبديدهم ؛ بحيث تغشي السلبيةُ أبصارَهم وبصائرَهم ، وتبدد إرادتَهم ، وتستعبد جموعَهم ، وتمكن الكبراء المفسدين من إخضاع جموع العامة والتحكم بمصائرهم كما يشاؤون ، وهم في غفلة من الأوهام

والأحلام والخرافات والشعوذات ، وفي خوفٍ ورعبٍ من الترهيب والتحقير .

يا بيدبا دعنا ننظر إلى الأمر بعين العقل والبصيرة ، ووفق ما أودع اللّه الكونَ من السنن والنواميس ؛ لنعلم وجه الحقِّ في الأمر ، ويزول الوهم واللبس .

ألسنا نعلم عقلًا ونؤمن يا بيدبا إيمانًا حقًّا بأن الخالق أودع الأرض وافر الخيرات وكفل للكائنات أرزاقَها ، فكيف نرى الألوف والملايين من الناس يموتون جوعًا في بعض البلاد .

هل في هذا شيء من الوهم يا بيدبا ؟ وهل في هذا تناقض بين الإيمان والحس ، وبين خلق الكون وكلمة الحق ؟ وبين تكامل كلمة الوحي وواقع نواميس الخلق والطبيعة ؟

هل موت بعض الناس جوعًا يا بيدبا يعني أن الأرض ليس فيها من الأرزاق ما يكفي عليها من البشر طعامًا ومتاعًا ؟

إن بعض الجهلة والبسطاء الذين يحمل بعضهم للأسف إجازات أكاديمية يطلقون القول دون فهم صحيح للعقائد والطبائع ، ولايأبهون للفهم الصحيح لحتمية التطابق بين صحيح العقائد وما أودع اللّه الكائنات من السنن والطبائع والمصالح ؛ لأنهم كلهم مقلِّد إما للأجنبي أو للداثر ؛ فهم لا نصيب لهم في الحقيقة يعتد به من العلم والمعرفة من

السير في الأرض ، والتفكُّر والتدبر العلمي ، بشأن حقيقة الواقع ، وسنن الطبائع ، ونواميسها في التسخير والتيسير ، فجُلُّ المدني ناقل ، وجُلُّ الديني لفظي مقلِّد ، ليس لهم في العلم والمعرفة والفكر والإبداع نصيب .

يا بيدبا إن جوهر إشكالات الأمم والشعوب المتخلفة في هذا العصر ، ليست - في جوهرها - إشكالاتِ لفظياتٍ وفقهياتٍ ، ولكنها إشكالاتُ رؤيةٍ وفكرٍ ومنهجٍ ، تستدعي - بالدرجة الأولى - إصلاح الرؤية ، وإصلاح الفكر ، وإصلاح الثقافة ، وإصلاح المنهج ؛ وذلك بالبحث والدرس والتنقيب الأصيل ، وبالجد والاجتهاد ؛ الذي يبصِّر - بشكل موضوعي علمي - هذه الشعوب بالحقائق ، والطبائع ؛ بما يُنْضِجُ رؤيتها ، ويصلح خلل ثقافتها ، وتشوُّه منهج فكرها ، ويرشِّد جهودها ، ويمكنها من مواجهة تحدياتها .

عوام أهل العلم يا بيدبا يلقون القول على عواهنه ، بالفهم القاصر المقتصر على اللغة ، وعلى سطحي الفهم ، وصوري المنطق ، وموروث الآراء والمفاهيم ؛ التي لا تتعلق بإشكالات العصر وإمكاناته وتحدياته ، أو بعلومه ومعارفه وأبعاده الزمانية والمكانية ، ويحلُّون ما يصنعونه من تناقضات وهْمية برمي الناس بالجهل والعصيان ، ويصرون على أمرهم بوجوب الطاعة دون فهم أو اقتناع أو ثمرة ملموسة .

يا بيدبا لقد تشوَّه فكر هذه الشعوب ، وتشوهتْ رؤيتُها

كما تشوه وجدانها ؛ حتى قعدت عن العمل ، وتخلَّفَتْ عن ركب الحياة ، وتهمشتْ في عطاء إعمار الأرض وحضارة الإنسان ، فالعمل الصالح عندهم ليس هو السعي بالعمل والتسخير ، وبالجد والاجتهاد ، وبالإصلاح والإعمار في الأرض ، ولكن العمل الصالح والعبادة في فكر الكثيرين من أصحاب النظرة الجزئيـة يكاد يقتصر على تمتمات اللسان ، وعلى القعود لمجرد التلاوة في دُوْرِ الذكر والشعائر وحلقات الدرس والاستظهار .

أما الإحسان يا بيدبا في رؤية أصحاب النظرة الجزئية ؛ فإنه لا يكون له علاقة بالسعي في الكون وفي طلب الأسباب والنواميس ، وإتقان العمل ، وحسن أدائه على وجهه الصحيح ؛ مما يحقِّق معاني الذكر وغاياته ومقاصده في الاستخلاف ، وأداء الأمانة ، والإفادة من العقل والعلم في بناء الحياة والإعمار ، وتيسير الحياة ، وقضاء الحاجات ، ووفرة الإنتاج الذي يوفِّر للعاملين معاشهم ، ومعاش مَنْ يعولون ، ومعاش من هم وراءهم من أصحاب الحاجات من الضعفاء والمحرومين .

الإحسان يا بيدبا هو الإتقان ، وحسن الأداء في كل شيء ، بأوسع معانيه ، وحسن البذل وكريم العطاء للمحتاجين يا بيدبا هو وجهٌ واحدٌ من وجوهه ، وتقوى الإيمان واستحضار حب اللَّه والحرص على مرضاته وجهٌ آخرُ

من وجوه الإحسان ، ولكن الإحسان يا بيدبا لا يقف عند هذه المعاني ؛ بل هو معنى شامل لكل ألوان الأداء والإتقان والبذل والجد والاجتهاد في كل مجال ، واللَّه ﷻ يا بيدبا لا يحب من الأعمال إلا ما كان منها متقنًا ، ولا يمنح الرضا ، ولا يجزل الأجر ، إلا لمن يحسن العمل على كل وجوهه الخيِّرة ، وكافة مجالاته النافعة .

وشكر النعم يا بيدبا إنما يكون في المقام الأول بالعمل الصالح الذي يعمِّر ويسخِّر ، ويصلح أحوال الناس ، ويمنح العاملين الرزق والوفرة لأنفسهم ، والعطاء لمن حولهم .

أما أن يُفهَم العمل الصالح على أن المقصود به هو ترديد تلاوة الذكر والإكثار من أعمال الشعائر ، وريادة الحلقات ، وقليل عطاء الخاملين العاجزين ، ونذْر صدقاتهم إن استطاعوا وفعلوا ؛ فإن ذلك هو أيضًا فهم جزئي قاصر مُنْبَتٌّ من رؤيته الكلية الكونية في فهم معنى الحياة والاستخلاف ، ونعمة العقل والعلم والمعرفة ، وواجب أداء الأمانة ، فالعمل الصالح عمل صالح بإخلاص النية في قصده ، وجد السعي باتباع السنن والنواميس الإلهية وسع الطاقة ، بالبحث والدرس والطلب .

آن الأوان يا بيدبا أن تنطلق سواعد أبناء هذه الشعوب وعقولهم وسع الطاقة ، بما أنعم اللَّه عليهم من عقل وقدرة

ومهارة وإبداع ، إلى السعي في الكون والحياة بالعمل الصالح والإحسان والإتقان بكل صوره ، وفي كل مجالاته ، شاكرين اللَّه بالعمل الصالح في أساليبه ، وأدائه بكل ما يمليه العقل والعلم والفطرة والنواميس أولًا ، قبل الشكر بالقول والشعائر ، مهتدين إلى مرضاته بالذكر ؛ بحسن أداء أعمالهم وإتقانها بكل الجد والإخلاص والصدق في النية والقصد ؛ ليسخِّروا الكون ، ويوفروا معاشهم ، ويعمِّروا الأرض بالعمران الخيِّر ، كما أراد اللَّه لهم ، وفطرهم ، ويسَّر السبل أمامهم ؛ ولذلك خلقهم على تتابع الأجيال .

دعني يا بيدبا أوضح لك أمر هذه العلاقة بين مقاصد القول الحق ، وحقيقة السنن والطبائع ، وآخذ ذلك من مثالٍ وحالٍ كلنا نشاهده .

كلنا يا بيدبا يعلم أمر شح الأرزاق لدى بعض الشعوب ، حتى إنه يهلك منها الكثير بسبب الجوع والفاقة .

ونحن نعلم بقول الحق والوحي المنزَّل ، ونؤمن يا بيدبا بأن اللَّه قد أوجد في الأرض أرزاق كلِّ ما عليها من خلق وبشر .

ونحن نعلم أيضًا يا بيدبا بالفعل وبالحسِّ وبالمشاهدة ؛ أن الأرض بها الكثير من الأرزاق والطاقات التي تنتظر مَنْ

يسخِّرها ويستخرجها ويستنبتها ويستكشفها ويطوِّرها ، وهو ما تفعله الشعوب العاملة .

ونحن نعلم ونشاهد أيضًا يا بيدبا أن اللَّه أعطى للإنسان العقلَ ، وألزمه الأمانـةَ ، وأجلسه مجلس الاستخلاف ، فهو - بالعقل والعلم والعمل والخيار - القادرُ والمتصرفُ في هذه الأرض على مايختار بالخير أو بالشر .

هذا كله يا بيدبا يعني : أن على الإنسان أن يفكِّر ويتدبر ويتعلَّم كيف يسخِّر الأرض لإرادته وحاجته ؛ فيفكِّر ويبحث في السنن والطبائع ؛ للحصول على حاجاته من القوت الذي يأكله ، وعلى الأدوات والآلات التي تعينه .

وهذا أيضًا يا بيدبا يعني : أن على الإنسان أن يعرف بالعقل والعلم والبحث والدرس مؤهلات الأرض التي تزرع ، ومواضع المعادن التي تستخرج ، وأن عليه أن يتعلم ويبحث كيف يصمِّم الأدوات والآلات ، وكيف يصنعها ، وكيف يستعملها في الصيد ، والزراعة ، وفي استخراج معادن الأرض وخيراتها ، وتسخيرها لمختلف حاجاته وعمرانه ؛ فقد جعل اللَّه الخيرَ و« الرزق في خبايا الأرض » .

يا بيدبا هذا يعني في المحصلة : أنه بالعقل والعلم والعمل والإبداع وطلب نواميس الفطرة ؛ يستطيع الإنسان أن

يسخِّر كنوز الأرض وخيراتها وقوانينَ قواها وسنن طاقاتِها ، لحاجاته وعمرانه ، وكلما توالت الأجيال ، وازداد تكاثر البشر ، وازداد علم الإنسان ، ازدادت قدرته على تسخير الأرض والسنن والكائنات لحاجاته المتزايدة وعمرانه المتسع .

ألم ترَ يا بيدبا كيف أن ابن آدم لم يكن يعرف في البدء حتى كيف « يواري سوأة أخيه » ، وكيف تراه اليوم بالعقل والعلم والمعرفة والبحث والدرس والعمل ونمو الحضارة يجُوب الآفاق ، ويتطلع نحو كواكب الفضاء ونجوم السماء .

يا بيدبا إن الإنسان في الحياة قد خُلق ليفكر ويعمل ويبني الحضارة ، وليسخِّر الأرض والكون لتيسير أمر حياته على هذه الأرض ، وميزان النجاح في هذا التسخير والإعمار هو أن تكون الحضارة والعمران ، وأن يكون التسخير والتيسير في سبيل الحقِّ والعدل ، وفي سبيل الخير والسلام ، لا في سبيل الشر والظلم والعدوان .

يا بيدبا من الواضح الملموس أن الإنسان يحرص على الحياة ، وأنه يحرص على الإنجاب ، وغاية هذا الحرص لو تَمعنَّا يا بيدبا هو دافع الفطرة لدى الإنسان أن يؤدي مهمة الاستخلاف التي خلق اللّه الموت والحياة لأدائها ؛ كل ذلك حتى تستمر الحياة ، ويستمر الإعمار في الأرض ، جيلًا بعد جيل ، فاستخلاف استعمار الإنسان في الأرض هو معنى الفطرة ، وتلك الغرائز وأسبابها التي أودعها اللّه في طبع

الإنسان ؛ ليستمر البناء والإعمار ومشروع حضارة الإنسان على الأرض ، ولا يكون ذلك إلا بحب الحياة ، والحرص عليها ، وبالحرص على إنجاب الأجيال للأجيال ، واستمرار الحياة والاستخلاف والبناء ؛ حتى يكتمل مشروع حضارة الإنسان على وجه الأرض ، والوحي والذكر يا بيدبا ؛ ليس غاية في ذاته ، إنما جاء لما يحيي الناس بهداية الاستخلاف ؛ ولتُؤَدَّى الأمانة ، ويُرَشَّدَ الخيار ، فتكون الحضارة ، ويكون الإعمار في سبيل الخير ، لا في سبيل الشر ، وبذلك تتحقق الغاية من الحياة ومن استخلاف الإنسان في الأرض .

ولما كنا يا بيدبا بالعقل والحس والمشاهدة نعلم علم اليقين أن الأرض فيها أرزاقها ، فإن كل المطلوب بحقيقة الاستخلاف هو أن يستخرج الإنسان بالعقل والعلم وخيار الأمانة والعمل هذه الأرزاق من الأرض لمصلحته ورفاهيته .

من كل ما سبق يا بيدبا يتضح لنا دون أدنى شكٍّ أن سنة اللَّه في الخلق تعني أنَّ مَنْ يتواكل ويكسل ويعجز ولا يفكِّر ولا يعمل ، فهو بهذا لا يستحقُّ أن يأكلَ ويطعمِ وينعمَ بالخيرات ، وإن مصيره كما اختار لنفسه في خاتمة المطاف أن يموتَ ويموت الكثيرُ من أمثاله جوعًا ومرضًا ، وأن يعرى الكثير منهم فاقةً وفقرًا. فهل موت هؤلاء وعريهم ومرضهم يغيِّر من حقيقة أن الأرض فيها أرزاقهم إذا ما قاموا

إليها بالعقل والعلم والعمل ؛ يستنبتونها ويستخرجون خيراتها وأرزاقها .

هذا هو الفرق بين أمم تنتج وتستخرج وتنعم ، بل وتبدِّد كثيرًا من النعم للأسف وتسرف ، وأمم أخرى تعجز وتتخلف وتفتقر وتعدم ، ليست الفاقة والفقر في أرزاق الأرض ، ولكن الفقر والفاقة والعجز في نفوس البشر .

مثال آخر يا بيدبا بشأن خيرات الأرض ؛ فالأرض كما نعلم أيضًا فيها الكثير من المعادن النافعة ، ومنها على سبيل المثال معدن الذهب الثمين ، ولكن لكي يحصل الإنسان على الذهب يا بيدبا لا بد له – كما نعلم ونشاهد – أن ينمِّي المعرفة التي تحدد مواقع وجود هذا المعدن ، وأن ينمي المعرفة التي تمكنه من صنع الأدوات التي تحطم الصخور وتغور في بطون الأرض ووعر الجبال ، وتستخرج الصخور التي تحتوي على المعدن ، كما أن عليه أن ينمِّي المعرفة التي يستخلص بها هذا المعدن الثمين من بين شوائبه ، وأن ينمِّي المعرفةَ التي يطوع بها هذا المعدن لحاجاته وصناعاته وزينة نسائه .

هل تعتقد يا بيدبا أنه لو جلس طلاب المعادن يدعون اللَّه مئات السنين أن يستخرج اللَّه لهم المعادن من باطن الأرض والجبال ، دون أن يؤهلوا أنفسهم للحصول عليها بالعلم

والكد والجهد ، هل ترى ذلك يمكن أن يحدث يا بيدبا ؟!

قال بيدبا يجيب الشيخ : بالطبع لا أيها الشيخ الجليل ؛ فنحن نعلم بالذكر وبالمشاهدة أنه ما نال هاملٌ ، ولا أملق عاملٌ ؛ فسنة اللَّه في الخلق أنَّ « من جَدَّ وَجَدَ » ، وأن علينا أن نقوم بأداء واجبنا في التفكر والتدبر والبحث والدرس والتنقيب والعمل ؛ لأننا نعلم يقينًا « أن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة » ولا تمطر خبزًا ولا متاعًا ولا طائرات ولا حاسبات آلية ولا دبابات ولا صواريخ .

إن تمكين الاستخلاف والعزة والقوة والقدرة للإنسان في الأرض لا يكون بمجرد القعود للتمتمات والمجادلات وأداء الشعائر فحسب ؛ ولكن أيضًا بالسعي والعمل الصالح المتقن ، بشروط السعي بالأسباب والنواميس والسنن التي أودعها اللَّه الكائنات ، فبدون السعي والعمل الصالح المتقن في المعامل والمصانع والحقول وأعماق المناجم والبحار ، ومن دون صبر أيام قاعات البحث والدرس ولياليها الطوال ، لن يكون ذهب ولا فضة ولا خبز ولا قوة ولا قدرة ولا عزٌّ ولا تمكين ، تلك سنة اللَّه في الحياة ليس عنها محيص مهما تفاصح العاجزون ، وكابر الحمقى والبلهاء والقاعدون .

نعم أيها الشيخ الجليل مَنْ أراد التمكين ، ومَنْ أراد الذهب والفضة والخبز والمتاع والصناعات والآلات

والأدوات والعلم والتقنية ؛ فإن سنة اللَّه في الخلق هي الفكر والعلم والمعرفة والعقل والبحث والدرس والعمل والإبداع والإتقان .

وتابع بيدبا حديثه قائلًا : ولكننا أيها الشيخ الجليل إذا سلَّمنا بذلك ، وشهدنا أن ذلك هو سنة اللَّه في الخلق ، فماذا يعني الدعاء إذًا ؟! هل هو وهمٌ وسرابٌ ، وليس هناك على وجه الحقيقة مِنْ حاجةٍ إليه ؟ وإن لم يكن الدعاء وهمًا ولا سرابًا فأين موضعه من سير الحياة ؟ وأين مكانه من صلة الإنسان باللَّه في هذه الحياة ؟ .

قال الشيخ ابن بطوطة : نعم يا بيدبا ؛ الدعاء وهمٌ ، والدعاء حقيقةٌ ، ولكن تفصيل القول في هذا الأمر لا يمكن أن نواصله ونحن على ما نحن عليه من التعب ؛ ولذلك أدعوكم إلى تناول شيءٍ من شراب الزهور وعصير الفواكه ، وشيءٍ من حلوى طحين السمسم وخبز القمح نستعين بها على مواصلة الحديث والحوار بشأن هذا الأمر الهام في حقيقة الدعاء بعد أن نفرغ من صلاة المغرب .

سارع فتى الشيخ إلى إحضار العصائر والشراب ، وقام بتقديم العصير الذي نال إعجاب الحاضرين وتقديرهم ؛ وذلك لخبرة صُحْبَةِ الشيخ في إعداد لذائذ ألوان الطعام والشراب .

٧
لا جائزة للخامل والظالم

وبعد أن فرغ الجميع من الطعام والشراب ، ونالوا قسطًا من الراحة قبل أن يقوموا إلى صلاتهم ، وبعد أن فرغوا من صلاة المغرب التأم شمل الحاضرين حول الشيخ من جديد ، يتصدر صفوفهم الحكيم بيدبا .

قال الشيخ : لقد توقفنا أيها الحكيم عند أمر الدعاء ، وهل هو وهمٌ وسرابٌ ؟ أم هو حقيقةٌ وقوةٌ للإنسان المؤمن .

وقلنا يا بيدبا أن الدعاء حقيقة ووهمٌ .

الدعاء يا بيدبا يكون وهمًا وسرابًا فقط عند أولئك الذين قيدوا عقولهم وخواصرهم وسوقهم بحبوات التمتمات والجهل والعجز والكسل ، وقعدوا في عقر دورهم وأوطانهم ، ينتظرون بوهم دعائهم أن تمطر السماء ذهبًا وفضةً وخبزًا ، والسماء يا بيدبا لا تمطر ذهبًا ولا فضةً ولا خبزًا ، وأنَّى يُسْتَجَابُ لمثل هؤلاء يا بيدبا ، إن دعاء هؤلاء هو الوهمُ والسرابُ بعينه .

أما حقيقةُ الدعاء يا بيدبا فأمر آخر ؛ نعم نحن نعلم أن الدعاءَ الصادقَ من الإنسان الصادق حقيقةٌ وقوةٌ ؛ لأننا نعلم يا بيدبا أن اللَّه هو الخالق ، وأن اللَّه هو الفعَّال المسيِّر

للكون ، وأنه هو الذي أودع الكائنات سننها ، وأنه هو اللطيف الخبير .

وأنت تعلم أيضًا يا بيدبا أن سَلَفَ تلك الشعوب التي قعدت اليوم في حبواتها عن العمل النافع المنتج ، وعن طلب النواميس والسنن الإلهية في الكون بالبحث والدرس والعمل المسَخِّر العمراني ، وعن الإبداع والإتقان ، كانوا أقوامًا أحرصَ الناس على العمل والجد والاجتهاد وإذكاء الفكر وحسن الإعداد والاستعداد ، ومع ذلك كانوا أشد الناس حبًّا للّه ، وتوجهًا إليه بالتضرع والدعاء ؛ حبًّا له ، واستعانة به ، وطلبًا لألطافه الخفية في إلهامهم الصواب ، وتيسير أمورهم ، ودفع البلاء عنهم بسر قدرته وحكمته الكلية ، فكانوا يا بيدبا قومًا توجهوا بالدعاء إلى اللّه العليم الوسيع ، بما فيه الخير لهم ، بعد أن جَدُّوا واجتهدوا وعملوا ، وتوكلوا ، ولم يعجزوا ، هذا معنى الدعاء يا بيدبا ، فالدعاء المستجاب يا بيدبا يعين المؤمن المخلص المجتهد قدر طاقته ؛ فيلهمه اللّه الصواب ، ويسهِّل له الأمور ، ويسخِّر له ألطافه الخفية لما فيه صلاح أمره في الدارين .

يا بيدبا ؛ إن هذا الإلهام ، وهذا التيسير ، وهذا العون واللطف الإلهي هو جائزة الإيمان وحُسن الأداء وعظيم الاجتهاد ، أما المتواكل والمفرِّط والعاجز والعابث مثله مثل المفسد والظالم ، فلا دعاء لهم ولا جائزة .

اذكر جيدًا يا بيدبا أن اللَّه تعالى قد خلق الموت والحياة ، وأوكل إلى البشر مهمة الاستخلاف ؛ لينظر كيف يعملون ، ولذلك فإن اللَّه يحب مَنْ يحسن العمل قدر طاقته ، ويتقن الأداء في هذه الدنيا ، ولا يضيع اللَّه أجره في الدنيا والآخرة .

ولهذا يا بيدبا فإن الدعاء المستجاب عند اللَّه هو جائزة المؤمن العامل المجتهد الذي يسخِّر عقله وساعده للعمل الصالح الذي ينفع الناس ، أما الظالم والمفسد وكذلك المفرِّط والخامل والعابث فلا دعاءَ ولا جائزةَ لهم ولأمثالهم ، وهذا هو العدل يا بيدبا ، ولا يظلم ربك أحدًا .

لذلك كان يا بيدبا نصيبُ من اجتهد وأصاب أجرين ، ومن أخطأ فله أجر واحد ، أي : إن المؤمن الذي يعمل عملًا صالحًا ، أي عملًا علميًّا صائبًا ، فله الثمرة في الدنيا ، وهو أجر الصواب والتوفيق في طلب الفطرة والنواميس والأسباب ، وله القبول في الآخرة ، وذلك أجر الإيمان والنية ، أما من يعمل ولا يصيب وفق نواميس فطرة الكون وسننه فلا نصيب له ولا ثمرة في الدنيا ، ولكن يظل له في الآخرة القبول وأجر النية ، وأجر ما بذل بإخلاص النية – قدر طاقته – من عملٍ وجهدٍ مخلصٍ ، ومثل هذا العامل المخلص له أن يدعو ، وأن يلجأ إلى كرم اللَّه أن يوفق عمله وجهده وجده واجتهاده ؛ ليكون موفقًا صائبًا ينال به الأجرين : في الدنيا والآخرة .

إن من يفكر ، ومن يتعلم يا بيدبا ، ومن يعمل ، ومن يجتهد ، له أن يدعو ، فإن اللَّه بحكمته وقدرته يستجيب عاجلًا أو آجلًا دعاءه ، ويعين جهده ، ويرزقه القدرة « من حيث لا يحتسب » ؛ لأن اللَّه مع المحسنين ، ولن يضيِّع اللَّه في الدارين « أجرَ مَنْ أحسن عملًا » ، هذه هي حكمة اللَّه ، وهذه هي سنته في خلقه .

فاعلم ذلك يا بيدبا ، واعلمه وتيقنه حق العلم وحقَّ اليقين ، ولا يزيِّف لك القولَ أحدٌ من الغافلين بابتسار الفهم في دلالات الفطرة والرؤية الكلية للحياة والكون .

يا بيدبا إن التقدم وتنمية المعارف والإعمار يحتاج إلى بذل مجهود كبير ، وهو مجهودٌ - بلذة العلم والمعرفة وثمرة الإنتاج - رائعٌ ممتعٌ ، أما التعويق وعرقلة الجهود وإفساد خطط الإصلاح والإعمار والتخلف ؛ مع كل ما يجلب من ألم وحاجة وذل وضعفٍ وفاقةٍ فهو يحتاج إلى مجهود أكبر .

يا بيدبا حين تستعيد هذه الشعوب رؤيتها الكلية الكونية الإيمانية الصحيحة سوف تعرف معنى حياتها وغايتها في الإحسان ، إتقانًا للعمل ، وتسخيرًا للكون ، وجلبًا لمنافع الناس ، وتجسيدًا لمعاني الخير في هذه الأرض ، بالوسائل والنواميس والأسباب العلمية السننية التي أودعها اللَّه الكائنات ، وبالتسخير والعمران الخيِّر ؛ لأن اللَّه يا بيدبا

خلق الإنسان من الأرض واستعمره فيها ، وذلك يا بيدبا هو سبيل العبادة والتعبيد القويم التي يحض عليها الذكر المنزل ، ويطلبها من خلفاء الأرض ، في كل مناحي الحياة ، أداءً للأمانة ؛ ليهديها إلى السبيل ، لا ليقعدها عن السبيل .

فالوحي يا بيدبا جاء ليحيي الناس ، ويرشد إرادتهم وخيار سعيهم وعملهم ليكون نافعًا صالحًا ، وما جاء يا بيدبا ليقعد العقول والسواعد بالعجز واللغو والتمتمات والأوهام .

هل أدركتَ يا بيدبا - بما ذكرت لك من أمثلة - حقيقةَ المعنى الصحيح للدعاء ، ومَنْ هم أهل الدعاء ، ولماذا لا يستجيب اللَّه دعاء الظالمين والمفسدين ، ولا دعاء الخاملين العاجزين المتواكلين ، ولا أداء المفرطين اللاهين العابثين المتقاعسين ؟ .

الدعاء الصحيح يا بيدبا في جوهره ينبعث من عاطفة حبِّ اللَّه ، وهو قوةٌ للروح ، وطلبٌ لألطاف اللَّه في عون الجهد والجد والاجتهاد للمؤمنين الذين يعملون الصالحات ، ويحسنون - قدر الطاقة - في هذه الحياة صنعًا ، عونًا منهم لمحتاج ، وإماطةً للأذى عن الطريق ، وصيانةً للمرافق العامة ، وزرعًا يأكل منه الطير ، وصنعًا لدواء يشفي بإذن اللَّه من بعض الأمراض ، واختراعًا ينمِّي بعض موارد المجتمع ، وآلةً تيسِّر بعض حاجات الناس ، كل هذا وغيره يا بيدبا إحسانٌ

وعملٌ صالحٌ في هذه الحياة الدنيا ، ما حَسُنَ القصدُ وحَسُنَتْ النيةُ ، فالعملُ الصالحُ بكلِّ ألوانه مطلوبٌ ، والقوةُ مطلوبةٌ ، والعزمُ مطلوبٌ ، وكلٌّ حسب قدرته وطاقته ، ولا يكلف اللَّه نفسًا إلا وسعها .

يا بيدبا ؛ حين تستعيد هذه الشعوب رؤيتها الاستخلافية الحضارية الخيِّرة التي من أجلها خُلِقَتْ ، وتقوم بأداء أمانتها بجدٍّ واجتهاد وإتقان وإحسان قدر الطاقة في خوض غمار الحياة وإعمارها وتسخير كنوزها وسننها ، وفي تيسير حياة الناس فيها وإعمارها بالعلم والعمل على شاكلة أسلاف عهدها من الصالحين البنَّائين المجاهدين ، عند ذلك فقط يا بيدبا يكون لدعائهم معنى وجدوى ، أما من ينتظر إمطار السماء ذهبًا وفضة وخبزًا وقوةً وعزةً وعمرانًا فلن يجديه الدعاء شيئًا مَهْمَا اشتد نواحه ، وعلا عويله ، وتقطعت أنفاس أنينه ؛ فتلك يا بيدبا - كما تعلم ذلك علم اليقين - سنة اللَّه في الخلق ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًا ﴾ .

يا بيدبا بشِّر هؤلاء الغافلين المتواكلين ، واللاهين الخاملين ، والمستهلكين العاجزين المقصرين ، وأنذرهم بأن العقل والفكر والعلم والعمل والإتقان والإبداع بما ينفع الناس ، وبما يسخِّر المنافع والأرزاق ، ويبني صالح الحضارات والعمران ، والإفادة من كل ما في ذلك من متعة المعرفة بأسرار الكون والفطرة ونفع التسخير والقدرة ، إنما هو الغاية

من وجود الإنسان خليفةً متصرفًا في الأرض بقدرة عقله ، مؤتمنًا فيها بحرية إرادته ، وأن الذكر والوحي إنما نزل ليكون دليلًا كليًا ومذكرًا ومرشدًا ، يعين على توضيح الغاية والرؤية ، وعلى سبل صلاح العمل لما يحيي الناس ، ولم يكن قط دليلُ العملِ بديلًا عن العمل ، ولا خير في ذكر لا يحضُّ على فكرٍ وعلى بحث ودرسٍ تكون نتيجتُه عملًا وإتقانًا وإعمارًا وتسخيرًا خيِّرًا ؛ ينفع صاحبه ، وينفع الناس ويحييهم ، فالذكر هداية وتذكير ، ونور وتبصير .

قدرة العقل والفكر والإبداع ، وقدر العمل والإتقان ، هما الآلة التي أودعها اللَّه في طبع الإنسان للإعمار ، والذكر هو دليل العمل ، ووجهة الخير فيه ، فمن توجه إلى الدليل يقرؤه ، ويقلب صحائفَه ، ويردد كلماته ، منصرفًا عن العمل والأداء والإتقان الذي قصد إليه الدليل ؛ فقد أخطأ الطلب ، وضلَّ الغايـةَ والأرب .

إن مثل هذه الشعوب الغافلة العاجزة التائهة يا بيدبا كمثل مَنْ أعطي آلة لتركيبها وتشغيلها وإعدادها للإنتاج بها ، والإفادة منها ، فأخذ يقرأ دليل التركيب ، يكرره وينغِّمه ويحرره ويزينه ويبدي فيه ويعيد ، وترك الآلة جانبًا لتصدأ ناسيًا أمر تركيبها وإنتاجها وتسخيرها والإفادة منها .

يا بيدبا ما أكثر حديث كثيرٍ من هؤلاء الغافلين العاجزين

عما يجب ، وما أقل – عدا الاستهلاك – فِعْلهم ومبادرتهم لما يجب عمله وتجسيده بكل أنواع العمل المتقن ، والفعل المبدع ، والأداء النافع البنَّاء المسخر للكون ، الميسر لحياة الناس ، الموفر لحاجاتهم ، ما أكثر أقوالهم يا بيدبا ! وما أقل أفعالهم ! وكأنهم في عالم اليوم وقدراته وعطائه نموذجٌ للعجز والضعف والقصور .

يا بيدبا هل من الصواب أن ترى معنى أو تتوقع خيرًا مِمَّنْ يجلس في ركن أو زاوية أو قارعة طريق يتلو الذكر ويتكفف به لقمة العيش ؟ وهل من أجل هذا جاء الذكر ؟! يا بيدبا ما أضلَّ سعي العاجزين الخاملين المتواكلين مهما استظهروا وتمتموا ؛ فإنه لا خير فيمَنْ يذكر ولا يحضه ذكره على العمل الصالح النافع في الاجتهاد ، والجهاد بالفكر والعمل والتسخير لما فيه نفع الناس ، وصلاحهم ، من الخيرات والأرزاق والزينة والمنافع ، وتسخيرها وإنفاقها في هذه الدنيا ؛ لتيسير الحياة ، وسدِّ الحاجات ، وفي سبيل الحقِّ والعدل والرحمة والسلام ، والتي ستكون بإذن اللَّه « خالصة للمؤمنين في الآخرة » .

هل هذه الشعوب اليوم بتخلفها وعجزها وضعفها وتقصيرها يا بيدبا تدرك حقًّا معنى تنزيل الوحي بالذكر ، وما أوجبه حقًّا في الحياة عليهم ، وأنه هداية وإرشاد إلى رسالة الإنسان في الحياة ، ومهمة وجوده على تعاقب

الأجيال في الأرض ، هل ساءلنا أنفسنا يا بيدبا حقًّا : لماذا تضيع كل جهود إحياء هذه الشعوب هباءً وهدرًا ؟! هل حقًّا أدركنا كيف نخاطبها ؟ وعن أي أمورٍ نحدثها ؟ وإلى أي السبل والإنجازات نوجِّهها ونرشدها ؟ .

إن مهمة وجود الإنسان في الأرض يا بيدبا – مما نلحظ في واقع الحياة ، وبما أخبر به الذكر – هو البناء الخيِّر للحضارة والعمران والتسخير بما ينفع الناس ، وذلك هو المتغير الوحيد في وجود البشر على مرِّ الأزمان ، وتعاقب الأجيال ، والذي من أجله – كما تدل الفطرة والعقل السليم وآي الذكر الحكيم – غَرَسَ اللَّهُ في فطرة الإنسان حرصَه على الحياة ، وحرصه على الإنجاب جيلًا إثر جيل ؛ يموت جيل وتنتهي حياته ، ويتوقف أداؤه ؛ فيقوم جيل جديد يواصل العمل والإبداع ، ويدفع بعمله عجلةَ الحضارة والإعمار ؛ حتى يتم مشروعُ إعمار الإنسان في الأرض ، كما أخبر بذلك الذكرُ الحكيم ، وكما نشاهد في دوافع الفطرة ، وسيستمر ذلك حتى يكتمل مشروع استخلاف الإنسان في الأرض ليرث « اللَّه الأرض ومن عليها » .

قل لي يا بيدبا كيف لشعوب الأرض بتقدم الأجيال وتعاقبها وكثرة الناس أن يواجهوا حاجاتهم ، وأن يدبِّروا أرزاقهم ، وأن يعلِّموا أبناءهم ، وأن يحموهم من الآفات والأمراض والنوازل ، إلا بالجد والاجتهاد والإبداع في البناء

والتسخير والعمران ، وتلك هي الحضارة ، ذلك لا يكون إلا باستخدام العقل والعلم والبحث ومعرفة السنن ، وطلب الأسباب ، بكل الإخلاص والجد والاجتهاد .

أليس ذلك من ألزم لوازم وجود الإنسان على الأرض ، وأوجب واجباته ؛ لتوفير حاجاته ، وترقية حياته ؛ شريطة أن يكون عملًا خيِّرًا ، أليست غاية الذكر والهداية هو الحض على هذا النوع من العمل ، وحمل مسؤوليته ، وإتقان أدائه ، وفاءً بواجب الاستخلاف وحمل الأمانة على وجهها الصحيح في الإعمار والتسخير الخيِّر ، عملًا وإتقانًا وجهادًا وبذلًا وعطاءً ؟ .

أو ليس هذا العمل ، وما على شاكلته ، إذا خلصت فيه النية وحسن القصد ، وما يتبعه من قدرة وبذل وإتقانٍ وإحسانٍ ، هو العمل الصالح ، يا بيدبا وصلاحه هو غاية الذكر والهداية ؟ .

على هذه الشعوب وأصحاب الفكر والثقافة والعلم في الأرض يا بيدبا أن يعيدوا النظر في فهمهم لرؤيتهم الكونية ، ولمعنى حياة الإنسان على الأرض وتعاقب الأجيال فيها ؛ حتى يكتمل مشروع حضارة الإنسان ، واستخلافه فيها ؛ ليرث اللَّه عندها الأرض ومن عليها ، وتصبح « حصيدًا كأن لم تغن بالأمس » ، وينتهي عالم الأرض والطين ؛ ليرقى الوجود الإنساني إلى عالم السماء والروح ،

ولتوفَّى كلُّ نفس بما عملت « إن خيرًا فخيرٌ ، وإن شرًّا فشر » . ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ .

يا بيدبا إن أمر خلق الإنسانيـة في مجملها ، وفي تطورها ، ودورها في إعمار الأرض ، وبناء الحضارة ، وتسخير الكون لحاجات البشر ، هي على شاكلة أمر خلق الإنسان الفرد وتطوره ودوره في إعمار الأرض ، وبناء الحضارة الإنسانيـة ، وتسخير الكون لحاجاته وحاجات من حوله من البشر والكائنات .

فالفرد وواحد الإنسان يا بيدبا ليس إلَّا صورة مصغَّرة للإنسانية ، كما أن الإنسانية ، ليست إلَّا صورة مكبرة ممتدة في الزمان والمكان ، للفرد وأي واحد من بني الإنسان .

فكما أن الفرد يا بيدبا يولد صغيرًا ضعيفًا جاهلًا لا يعلم شيئًا ، ثم هو شيئًا فشيئًا ينمو ويقوى ويدرك ويتعلم ، على أطوارٍ ومراحل ، إلى أن يشتد عوده ، ويكتمل ويقدر ، ويبدع وينتج ، ويعطي أفضلَ ما عنده ؛ لينتهي بعدها ويموت ، وكذلك الإنسانية يا بيديا ؛ فإنها بدأت بذرة بدائيةً ، إلا من استعداداتها ، لا تكاد تعلم شيئًا ، ولا تقدر على شيءٍ ، لتنمو وتكبر وتعلم ، على أطوارٍ ومراحل ، وينمو بنموها الإعمار ، وتنمو بنموِّها الحضارة الإنسانيـة ، وتنمو معها القدرة والتسخير ، كمًّا وكيفًا ، وما تزال الإنسانيـة – يا بيدبا – تنمو ، وتنمو معها الحضارة ، ويشتد

ساعدها وقدرتها العلم وفي الإعمار والتسخير ، وسيستمر ذلك يا بيدبا ، ويستمر معه نمو الإنسانيـة وعلمها وحضارتها وقدراتها إلى أن تكتمل ، وتبلغ غاية وجودها ، وعندها يا بيدبا ؛ لا بد من أن تنتهي تلك الحضارةُ ، وتنتهي معها الإنسانيـة ، وينتهي معها عالم كوكب الأرض ، مثلها مثل كل كائنٍ حيٍّ في ناموس هذا الكون ، فلا بد لكل كائنٍ من يومٍ يبلغ ذروته وغايته وينتهي فيه أجله ويهلك .

ولذلك يا بيدبا فإن من المهم للفرد ، وكذلك للشعوب والأمم ، ولمسعاهم في الأرض ، ولمشاركاتهم الحضارية في إعمار الكون ، وهم يخوضون غمار الحياة والإعمار ، النظر إلى مدلول هذا المسعى ، وهذه المشاركة ، وإلى مآلها ، هل هو استخلافٌ إلى الخير والحق والعدل والرحمة والسلام ، أم هو تسلُّط إفساد إلى الشر والظلم والقسوة ؟ .

يا بيدبا يجب على الأمم والشعوبِ أن تتعظ مِنْ حياة مَنْ سبقها ، من الشعوب والأمَم ، كما تتعظ من حياة كل فردٍ فيها ، وما يعتريه من حال الأحياء ، ومدلول أفعالهم ، ومآل أمرهم ، وإلَّا باؤوا جميعًا بالوبال والندامة والخسران ، يستوي في ذلك يا بيدبا الشعوب ، والأمم ، والأفراد ، سواء بسواء .

أين تضع يا بيدبا نفيس المتاع ؟ ألا تضعه يا بيدبا في الصدارة من الدار ، وفي موضع الإعزاز والتكريم ؟ وأين

تضع الزبالة والوخم يا بيدبا ؟ ألا تضعها بروائحها المنتنة بعيدًا عنك في حاويات الزبالات ؟ هل من الممكن واللائق أن يكون غير ذلك يا بيدبا ؟ أليس هذا - في مصير الإنسانية ، وفي عالم الروح - تحصيلُ حاصلٍ يا بيدبا ، والذي لا يقرُّ العقل والعدل سواه ؟؟ هذا هو لبُّ الحال ، ومعنى المآل ، لمن صفتْ نفسه ، وصفَا معدنه ، وأحسن العمل في هذه الحياة الدنيا ، ولمن أساء .

من المهم يا بيدبا أن نجعل الأجيال تدرك أن « استخلاف الإنسان في الأرض » ليست مقولة يلزم الذكرُ والوحيُ الناسَ بها بالأمر والإملاء ؛ بل هي تعبيرٌ ووصف لحقيقة طبع خلقِهم ، ومفهومِ استخلافهم ، وهو تعبيرٌ عن واقع وجودهم في الأرض ، كما أراده اللّه في أصل خلق الإنسان وطبعه وفطرته .

ومفهوم « الأمانة » أيضًا يا بيدبا ليس هو إلَّا الخيار والإرادة التي أودعها اللّه في فطرة الإنسان ؛ فهما يتنازعانه بين الخير والشر ، وبين النور والروح ، والظلمة والطين ، وهو الخيار بين قانون الغاب ؛ حيث الحق للقوة. وقانون الروح ؛ حيث القوة للحق. وحمل الإنسان للأمانة ، وهي أمر عظيم ؛ إنما تعني ممارسة حق الاختيار ، وتصريف الإنسان للحياة من حوله بالخير أو بالشر .

و« العقل والعلم » يا بيدبا ليس إلا الأداة التي أهَّل اللّه

بها الإنسان للفعل والعمل ، والتصرف والبناء ؛ فإما أن يكون الخيار والبناء حضارةً وإعمارًا وإبداعًا صالحًا ؛ يعين على النفع والخير وإقامة مجتمع العدل والتكافل والرحمة والسلام ، وإما أن يكون حضارةً وإعمارًا وإبداعًا فاسقًا فاسدًا يمكِّن لمجتمع التفسخ والتظالم والعدوان ؛ وذلك هو ميزان الفصل في أمانة الاستخلاف ، وممارسة أمانة التصرف ، ومعنى وجود الإنسان في الأرض ، هل هو إصلاح في الأرض أم إفساد في الأرض ؟ ولا يظلم ربك أحدًا .

و« الذكر » بهذا يا بيدبا ، وبكل أشكاله ، يجب أن يكون واضحًا في وعي الإنسان وخطاب الدعاة أنه ليس قهرًا ولا قسرًا ولا إلغاءً لخيار الأمانة ؛ ولا إلغاءً للعقل أو صرفًا عن العمل ، ولكنه تذكير ودليل إلى النور والحق والخير ، فهو موجِّهٌ للعمل ليكون صالحًا ؛ بما تهواه النفوس ، وتتشوق إليه ، وهو مفطور في أصل جبلة الإنسان من حب الخير والحق والعدل والرحمة والسلام ، وهو تذكير بالإصلاح الذي هو غاية عمل الإنسان السوي وجهده ، وبه يحقق الإنسان ذاته ، ويسدِّد خطاه .

معنى هذا يا بيدبا أن الذكر ليس إجبارات للإنسان ، وليس أوامر تحمِّله ما يثقل كاهله ، كما هو مألوفٌ في جُلِّ خطاب الوعاظ في هذا الزمان ؛ بل هو ذكرٌ وهدايةٌ ، وتسديدٌ وترشيدٌ للخيار ، وللفكر والعمل ؛ بما يحيي

الناس ، وينفعهم ، ويمتعهم ، ويصون كرامتهم ، ويستجيب لفطرتهم ، ويحقق ذواتهم وعميق أشواق أرواحهم ؛ فلا يصح أن يشوهَ الفهم ، ويطوَّعَ ويجتزأَ ؛ بحيث يُغَيَّبُ وعي الشعوب ، ويُقعد سعيهم ، ويكبت طاقة الفكر والدرس والبحث والإبداع والتسخير والعمران في فطرة خلقهم .

قال بيدبا : صدقتَ أيها الشيخ الجليل ، وما تفضلتَ بذكره لنا يوضح السرَّ في أزمة كثير من الشعوب ، والسبب في تخلفها وتهميش دورها الحضاري ، كما يوضح لنا لماذا أصبحتْ شعوبًا مُتخلفة عاجزةً مستهلكة ، غير مبدعة ، وقد كانت هي الأولى بالقيادة والريادة فيما لو عرفتْ حقيقة رؤيتها ورسالتها ، وأن الجهاد بالعمل والتسخير والإعمار الصالح هو هدفُ الذكرِ ، ومعنى الوجود والاستخلافِ المصلح في الأرض ، فذلك وعد اللَّه ، وهو أصل الفطرة ، وغاية الخلق ، فهنيئًا للعباد المؤمنين العاملين المحسنين الصنعَ ، المتقنين الأداءَ ، المجاهدين بالعمل الصالح الخيِّر النافع للناس والخلق ، إنه يا بيدبا جهادُ استخلاف وإعمار خيِّر في طلب الرزق ، وطلب العلم ، والبحث والدرس بما ينفع الناس ، ويوفر حاجاتهم ، وييسر حياتهم ، ويقيم بينهم مجتمع العدل والوفرة ، ومجتمع التكافل والتراحم ، ومجتمع الأمن والسلام ، ويحميهم من كيد أعدائهم وعدوانهم عليهم .

عند هذا الحد قال بيدبا : خطر بذهني خاطرٌ مهمٌّ ، فلم أشأ أن أسكت عنه ، ووجدت من الضروري ، أن أسأل عنه الشيخ وأستوضح أمره .

قال بيدبا : قلت : يا سيدي الشيخ هل معنى ما قلت أن كل جهود الإعمار والحضارة التي يبدعها الإنسان وعقله في هذه الأرض ؟ سوف تضيع وتهلك ، بهلاك الأرض ، فما أظن ذلك دلالة ما قلت ، وليس هو ما إليه قصدت .

قال الشيخ ابن بطوطة : صدقتَ يا بيدبا ؛ فليس ذلك معنى ما قلت ، وليس هو ما إليه قصدت .

أنت تعلم يا بيدبا أن الإنسان ، وعقل الإنسان ، من صنع اللَّه ، وأن الأرض وطاقاتها التي سخَّرها اللَّه للإنسان هي من صنع اللَّه أيضًا ، وأن مشروع حضارة الإنسان في المحصلة هو من صنع اللَّه وتدبيره ، فكيف تظن ، أو يخطر لك بالبال ، أن هذا المشروع وهذه الجهود سوف تضيع هباءً .

يا بيدبا لن يضيع كل ما يبذله الإنسان من جهود الإبداع المصلح الخيِّر هباءً .

وإن من المهم أن تعلم ذلك أنت وإخوانك يا بيدبا .

نعم من المهم يا بيدبا. بل و من أهم المهم أن ندرك ، بعد كل هذا وحصيلته ، أن ما يبدعه العقل الإنساني الذي خلقه اللَّه وأبدع صنعه ، من الحضارة ، ومن معاني الخير

والإتقان والإبداع والتيسير والتسخير ، لن يضيع هباءً ولا سدى ، بل إنه سينتقل إلى عالم الروح والخلود ، نعيمًا خالصًا للعاملين الأخيار ؛ ليجدوا في عالم الخلود والروح كلَّ ما فعلوا من الخير ، وكل ما فعله الإنسان ، من جهد الحضارة والإبداع والخير ، وليجدوه عند اللَّه حاضرًا ، ينعمون به ، خالصًا مبرَّأً من كل شرٍّ وسوء .

يا بيدبا إن الحياة الدنيا ليست نهايـة مشروع الحضارة والإبداع الإنساني على الأرض ، ولكنها البدايـة التي ستمتد ، ولا شكَّ إلى عالم النور والروح والخلود ؛ ولذلك فإن ما يبذله الإنسان ، من العمل والجهد والإتقان ، لا يقتصر على ما يحصل عليه من لذةٍ وراحةٍ ويسرٍ في هذا الحياة ، بل يمتد في عالم الروح والخلود ، ولو كان مثقال ذرةٍ أو حبة خردلٍ ، إلى آفاق أبعد وأوسع من اللذة والمتعـة واليسر .

يا بيدبا عليك أنت وإخوانك وأخواتك فعل كل ما تطيقون من جهدٍ ؛ لكي يعي بنو الإنسان حقيقـةَ معنى وجودهم في الأرض ، واستخلافهم فيها ، وقيمة ما رزقوا من نعمة العقل ، وقدرة الإبداع والتعرف ، لكي تحقق جهودهم ، وإبداعاتهم الخيِّرة غاياتِها في نفعهم ، وفي إمتاعهم في الحياة الدنيا ، وسوف تكون نعيمًا مقيمًا لهم في الحياة الآخرة .

يا بيدبا على الإنسان الصالح في هذه الحياة ، أن يبذل غاية جهده في الإبداع والبناء والإعمار والتسخير ، فهو خير له في الدنيا ، وفي الآخرة ، ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ ، ومن أجل ذلك فليعمل العاملون .

يا بيدبا إن انتهاء عالم الإنسان وحضارته ، بعد أن يكتمل مشروعها ، لا يعني الهلاك بمعنى العدم ، ولكنه « ميراث » يا بيدبا ؛ حيث « يرث اللّه الأرض ومن عليها » من عالم الطين والفناء ، إلى عالم النور والروح والخلود ، وهذا « الميراث » يا بيدبا ؛ « ميراثٌ » مخلوقٌ « مُكَرَّمٌ » ، فهو ميراث عزيز نفيس .

يا بيدبا كم من المؤلم أن يُضَيِّعَ كثير من البشر حياتهم هباءً بالتقصير والتقاعس واللغو والكسل في هذه الحياة ، أو أنهم يضيِّعونها بالسعي في الأرض بالشر والسوء والفساد ، فيضِيعُون ، ويضيِّعون اغتنام فرصة العمر ، بتحقيق سعادة الدارين ؛ ليندموا بعد فوات الأوان ، ولات ساعة مندم .

نعم لقد أحسنت يا بيدبا ، بسؤالك الحصيف ، لكي توضح هذا المعنى الدقيق لإخوانك وأخواتك من الحضور ، ومن سيأتي بعدهم ، من الأجيال الصالحة ، بإذن اللّه .

قال بيدبا : نعم لقد أوضحتَ وأوفيت أيها الشيخ

الجليل، وليس بعد ما قلته من حاجةٍ عندي إلى مزيد، فجزاك اللَّه عنَّا وعن مستقبل أجيال الشعوب السَّلامية الخيِّرة العاملة والمبدعة المحسنة من ورائنا خير الجزاء وأوفاه.

يقول الحكيم بيدبا: يهمني وأنا أقارب إنهاء سرد هذه القصة وروايتها، وما سمعته ووعيته من حديث الشيخ الرحالة ابن بطوطة فيها، أن أذكِّر من يقرؤها بصدد بعض أهم ما تناولناه في سابق لقاءاتنا بالشيخ الرحالة ابن بطوطة، وهو أن يدرك الإنسان أن مصدر الفعل والقرار الذي يحدد حقًّا مكانة الأمة، ومكانة الوطن، ومكانة المواطن، وهل يكون عزيزًا أو ذليلًا؟ وسيدًا أو عبدًا؟ وقادرًا أو عاجزًا؟ وعاطلًا أو عاملًا؟ ومثقفًا أو جاهلًا؟ ومبدعًا أو مقلدًا؟ وما مكانة كل هؤلاء في عالم الأمم والحضارات؟ إن الذي يقرر هذا القرار، ويحدِّد الغاية والوجهة، هو وعي كل أب وجهده، ورعاية كل أم وحنانها، وكيف يربون أبناءهم؟ وأي نوع من المواطنين يكونون؟ وكما يقول المثل الحكيم: «من شبَّ على شيء شابَ عليه»، وقول الرسول ﷺ: «**كما تكونوا يولَّ عليكم**»، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

يقول الشيخ ابن بطوطة في هذا الشأن: يا بيدبا؛ إنه لا يكفي العلم والمعرفة ورؤية العقل لتحريك الفعل في

النفوس ما لم يوافق العلم والعقل طبعَ النفس وطبيعةَ الوجدان ، وإلا كان العلم ، وكانت المعرفة ، مجردَ قولٍ لا يتبعه فعل ، ولغوًا لا يساوي قيمة المداد الذي يسطره ، فترى القائل يعلم الصواب ولا يفعله ، ويعلم الخطأ ويصر على فعله ؛ ذلك لأن طبع النفس والوجدان لديه لم يوافق مطالب العقل والعلم والمعرفة .

من هنا يا بيدبا ؛ تأتي أهمية التربية وبناء الوجدان في حياة الأفراد والشعوب ؛ لأنهما أساس الإرادة والفعل في كيان الإنسان ، وأداة تفعيل العقل والعلم في حياته .

على الآباء والأمهات يا بيدبا ؛ أن يقرأوا ويتعلموا ويتدبروا كيف يربون أبناءهم ، وأن يتلافوا في تربيتهم ما فات في تربية أنفسهم ، فليس هناك في العالم من قوة تأثيرٍ في تكوين إرادة أطفالهم ووجدانهم من قوة تأثير الآباء والأمهات عليهم ، والمدرسة يا بيدبا هي بالدرجة الأولى للتعليم ، ودورها في التربية وتكوين الإرادة والوجدان هو دورٌ داعمٌ لدور الآباء والأمهات في هذا المجال الخطير في بناء الشخصية الإنسانية ، وليس بحالٍ من الأحوال يمكن أن يكون بديلًا عنه ، إلا إذا أراد الآباء فساد تربية الأبناء ، وتشويه وجدانهم بتركهم تحت تأثير كل من هبَّ ودبَّ من الأصحاب والرفاق ، ولكل من يسمعون من التجار وأصحاب الأغراض والأهواء الذين ينعقون في كثير من

الفضائيات ، أو لكلٍّ مَنْ يَلْقَوْنَ بعيدًا عن أعين الرقباء في المدارس والنوادي والطرقات .

يضيف الحكيم بيدبا نصيحة أخيرة لمن قد يقرأ ما سطر قلمه في هذه القصة ، وتلك النصيحة هي ألا يغيب عن بال القارئ ، وعن بال كل مواطن في كل مجتمع ، أهمية المؤسسات الاجتماعية الشعبية الست المنتخبة المستقلة ؛ التي أعطت تلك الجزيرة وذلك الوادي ما يتمتع به من رفاه وأمن وسلام ، وأن يبقى دائمًا في بؤرة وعيهم واهتمامهم الحرصُ على أن يعملوا جهدهم لبناء مثل تلك المؤسسات في أممهم وأوطانهم ، وهذه المؤسسات المستقلة الست هي :

مؤسسات الدين والقيم التي هي بمنزلة ضمير الأمة ، والتي تنشر الدعوة إلى الخير ، وتعلي شأن الدين والأخلاق والقيم ، وتسهر على تعليمها والدعوة إليها .

ومؤسسات الإعلام الشعبي التي تنمِّي الوعي ، وتصدق الخبر ، وتُرَشِّدُ القرارَ .

ومؤسسة مجلس الشورى والتشريع التي تُصْدِرُ عن اقتناعات الأمة ومواطنيها القوانينَ التي تهدي مسار العمل ، وترسي مقاييسه وضوابطه بالتوافق مع كافة انتماءات المواطنين ومصالحهم من منطلق احترام إنسانيتهم وخصوصياتهم ؛ فيكون منها ما يعم ، ويكون منها ما

يخص ، ويكون منها ما يدوم ، ويكون منها ما ينقضي لحالٍ أو أجلٍ .

ومؤسسة التنفيذ التي تخطط العمل وترعى المصالح وتسهر على تأمين السلام والأمن ، وتذلل العقبات ، وتوفر الحاجات .

ومؤسسة هيئة القضاء التي تقيم دولة القانون ، وتحق الحقوق ، وترسي المساواة ، وتحمي العدالة .

ومؤسسة مجلس صيانة الدستور وسلامة أداء مؤسسات النظام الاجتماعي ؛ التي هي بمنزلة الحارس ، والتي ترقب أداء المؤسسات ومدى التزامها بمهامها ؛ فتسدد المسيرة وتمنع التعديات .

فهذه المؤسسات هي سلطات ومؤسسات مستقلة متعاونة فيما بينها ، ويدعم بعضها بعضًا ، ولكن تجمعها يدٌ واحدة ، بل تتكامل في مجموعها ؛ لتلبي بفاعلية حاجات المجتمع ، وتعلي الحقَّ والعدل والمساواة والتكافل في المجتمع ، وتمنع الاستبداد والتعديات ، وتحمي من الفساد والمظالم ، وهي أمراضٌ تعاني منها للأسف ، على غير ما تدعي ، كثيرٌ من البلاد والمجتمعات ، فلا تغش إلا نفسها ، ولا تسهِّل إلَّا أطماع المتربصين بها .

يقول الشيخ : واعلم يا بيدبا ؛ أن من أهم أسباب فشل

كثير من الشعوب فيما مضى - برغم سمو عقائدها ، ونبل مقاصدها ، وبرغم ما أُنزل إليها من ذكرٍ ودليل هداية - أن موروثاتها القبلية والوثنية البدائية ، والإمبراطورية الاستبدادية ، لم تمكنها من بناء المؤسسات التي دونها لا يستقر بنيان ، ولا يبقى غرس ؛ ولذلك سهل انحراف الرؤية وتشوه مناهج الفكر فيها ، وانتهى عمرانها وحضارتها إلى الوهن والضياع .

٨
البشر أغبى من البقر

يقول بيدبا : نعم من الواجب أن نعلم جميعًا ، ويعلم كل من يقرأ هذه القصة ، أن الشيخ الجليل ابن بطوطة ، قد صدق في قوله ونصحه ، من أنه لابد من هذه المؤسسات الست ؛ لبناء مجتمع العدل والتكافل والسلام في أية أمة ، ولابد منها للقضاء على الظلم والفساد والعدوان والاستبداد ، وعلينا أن نحرص على ألا نكرر أخطاء العصور السالفة ؛ بالتقصير في إتقان بناء مؤسسات الحكم ، وإدارة المجتمع ، واستدامتها على أساس الرؤية والفكر الصحيح للأمة ؛ لأن من أهم ما يساعد على استقرار المجتمعات ، هو الاهتمام ببناء المؤسسات ، وإتقان هذا البناء وصيانته ، وليس ذلك فقط في علاقات المجتمع الداخلية ؛ بل وفي علاقاته

الخارجية ، نعم هناك - كما يقول الشيخ ابن بطوطة - مجتمعات وشعوب منطلقاتها الموروثة ، في مدوناتها المحفوظة ، هي أسمى وأرقى من سواها ؛ ولكن لأنها تركتها حروفًا على ورق ، ولم تبن المؤسسات الاجتماعية والسياسية ، التي تحولها إلى قوة فاعلة منظمة لمسيرة المجتمع ، لم تنفعها تلك المنطلقاتُ والمفاهيمُ والموروثات - إلى حدٍّ كبيرٍ - في شيء ، على غير حال الشعوب التي اهتمت ببناء المؤسسات التي تفعِّل الرؤى والمنطلقات ، وعلى الرغم من انحطاط الكثير من منطلقاتها إلا أنها قد تمكنت بذلك من تحقيق أهدافها ، في القوة والفاعلية واستقرار مجتمعاتها ، فحققت قدرًا كبيرًا من الرقابة والانضباط ، ومراعاة إرادة جمهور شعوبها ، والمصلحة العامة.في إدارة مجتمعاتها .

لقد رأيتُ بنفسي - وكما رأى الشيخ ابن بطوطة - عجبًا ، كيف أن الأمة التي تنطلق من مفهوم وحدة الإنسان ، وتراحمه ، وحقه في الحرية والخيار ، تنتهي بسبب عدم اهتمامها ببناء المؤسسات التي تفعِّل المنطلقات والمفاهيم ، وتحوِّلها إلى أمر واقع ، وقوة اجتماعية فاعلة ؛ إلى أن تصبح - على غير حال مثيلاتها من الأمم الكبرى - أمةً يضرب بها المثل ، في الفقر والجهل وضياع الحقوق وسوء الإدارة ، وفي التناحر والتفرق والتمزق ، فلا تجمعها كلمة ، ولا تربط بينها مصلحة ، ولا يؤلف بينها رحم ولا دين .

وكيف أن أممًا أخرى من الكواسر ، التي تنطلق من مفهوم الصراع والمصالح الذاتيـة ، ومن مفهوم عنصريـة القومية ، وتمايز البشر ، وبناء الهويـة الإنسانيـة على الاختلاف والفروقات في الجنس واللون واللغـة ، تنجح في توحيد شعوبها ، وفي بناء مؤسسات نظم عالميـة ، يسمونها تارة « عصبة » ، وينعتونها تارة « متحدة » ، لا بهدف تحقيق السلام ، والقضاء على الصراعات والمظالم والحروب بين الشعوب ؛ بل بهدف المكاسب والسيطرة والهيمنة ؛ ولذلك كانت الحروب والمظالم الدوليـة ، التي هي من صنع هذه الدول ، وبأسلحة من اختراعاتها ، وإنتاج مصانعها ، هي اليوم أشد فظاعة ، وأكثر فتكًا ، وعددًا ، من أي عصر مضى ؛ لأن الغايـة الحقيقيـة من هذه المؤسسات الدولية ، التي تقيمها هذه الشعوب والدول ، إنما هو تحقيق سيادتها وتسلطها وسيطرتها الكونية ، وحماية نفسها ودولها من الدخول في حروب لا تقصدهـا ، ولا مصلحة لها فيها ، فهي بهذه المؤسسات تكون قد حققت غاياتِها ومصالحَها ، ويسرت تحقيق مكاسبها وهيمنتها ، ولم تعد بلادها حطب الحروب ، ولكنها هي البلاد التي تزكي بين فرائسها وضحاياها الصراعات والحروب ؛ مما يمكنها دون كبير عناء ، من نهب كثير من ثروات هذه الشعوب والدول الضعيفة المستضعفة ، وبأقل التكاليف وأبخس الأثمان .

لقد كان من الممكن أن يسود مفهوم العدل والشورى ، ومفهوم الإخاء والسلام ، لو أن الشعوب - التي تباهي بادعاء الإيمان بهذه القيم والغايات - بادرت في عهود ازدهارها وقدرتها ، إلى إقامة المؤسساتِ التي تفعِّل تلك القيم والغايات ، ولم تبقها مجرد فكرٍ وفلسفةٍ وشعاراتٍ ، في طيَّات الكتب ، وخطب المنابر .

يقول بيدبا : لقد كانت جلسة الشيخ ابن بطوطة إلينا ، وحديثه معنا بشأن أهمية المؤسسات ، وأهمية التعاون ، وأهمية عمل الفريق ، من أهم الجلسات ، ومن أهم أحاديثه إلينا .

يقول بيدبا : لقد كان يومًا باردًا ماطرًا وقد أكرمنا الشيخ جزاه اللَّه خيرًا - إلى جانب علمه ونصحه ، وحبه وحسن استقباله ، ولطف معشره وبشاشة وجهه - بكثيرٍ من عصير التمر ، وكثير من اللبن والشراب الساخن ؛ ما بعث الدفءَ في قلوبنا ، فأقبلنا على الاستماع إلى الشيخ بقلوبٍ وآذانٍ صاغية .

بدأ الشيخ ابن بطوطة حديثه قائلًا : يا بيدبا ؛ إن بناء المؤسسات هو الضمان للفاعلية والاستقرار والاستمرارية عند الشعوب ، وإذا وجدت دول وقيادات في أي دولة مستعصيةً على بناء المؤسسات ، وبالأسلوب الصحيح ، فلنعلم أن دوافعها ليست إلا المفاسد والمطامع الشخصية ،

وأن مآل دولها وشعوبها إلى الضعف والتمزق والضياع .

إن مفهوم المؤسسات يا بيدبا في هذا الزمان ، لم يعد أمر خيار ؛ بل أصبح هو ذاته بنية أساسيـة في هذه المرحلة من مراحل الحضارة والعمران الإنساني ، لا نجاحَ ولا تقدمَ لأي أمة أو شعب أو دولةٍ بدونها .

لم تعد الإنسانية يا بيدبا ؛ قبائل وجماعات منفصلـة معزولة متباعدة ، ولم تعد القدرات والمهارات والبطولات ، قضايا فرديـة وعنترية بسيطة ، ولكن الإنسانية وعلومها ومعارفها وتقنياتها وإنتاجها وكياناتها ، أصبحت عالمًا متسعًا متشابك الكيانات والعلاقات والمصالح ، وأصبحت حياة الإنسان وفكره وإنتاجه وعمرانه ، والمرحلـة التي بلغهـا العلم والمعرفـة ، مركَّباتٍ وتفاعلاتٍ معقدة ، لا يقدر عليها ، ولا يقوم بتبعاتها فرادى العاملين ؛ بل لا بد من أن يتكاتفوا ، ويتعاونوا على اختلاف تخصصاتهم في فرق عملٍ ومؤسسات إنتاج ، مهما تميز الأفراد في القدرات والعطاء .

يا بيدبا هذا العصر هو عصر المؤسسات العلميـة والإنتاجيـة ، فلم تعد التجارة دُكانة في حارةٍ ، ولا حملَ بعيرٍ في قريـة ؛ بل أصبحت مؤسساتٍ وشركاتٍ كبرى ، لا تقتصر في نموها على البلد الواحد ، بل أخذت نشاطاتُها تعبر القارات .

ولم يعد العلم والمعرفــة - في زخمه العلمي المتخصص المتعمق يا بيدبا - مجردَ تأملاتِ أفرادٍ بين أكداسٍ من الكتبِ ، في صوامع النساك ؛ بل هي مؤسسات علميــة كبرى ، ومعامل بحث علمي هائلة ، يتخصص فيها ألوف العاملين ، ويلمع فيها نجوم العباقرة الجادين المبدعين ، فهم يتعاونون فيما بينهم على بناء تراكيب هائلــة ، وتخصصات معقدة ، من الإبداعات ، والاختراعات ، والآلات التي تملأ الأرض ، وتجُوب قاع البحار ، وتبلغ عنان السماء .

وأنتَ يا بيدبا تعلم وترى ، كيف أصبحت المنتجات ، من الإبداع والتعقيد ، ماممكِّن من توفير حاجات الملايين والبلايين من البشر ؛ وذلك بتيسير نواميس الخلق ، وقوانين الطبيعة في تحويل الموارد ، وفي إنتاج الآلات والطاقات الصناعية الهائلة ، حتى إن المصنع الواحد من مصانعها ، يضمُّ ألوفَ البشر ، وتنتمي إلى مؤسساتها ، التي تمتد مثل أذرع الأخطبوط ، على مدى بلاد العالم ، مئات الألوف من العامليــن .

يا بيدبا حذِّرْ - أنت وإخوتك - شبابَ الأمــم المتخلفــة وقوَّادَها ، وأنذرهم ، أن يدركوا طبيعة الزمان الذي يعيشونه ، والمرحلــة الحضاريــة التي بلغتها إنسانيتهم ، وأن يدخلوا بكل قوتهم ، عصر المؤسسات ، والإبداعات ،

والوحدة ، والتعاون ، في كل مجالٍ من مجالات الحياة ؛ حيث تتميز الشعوب والأمم والدول ، وحيث يتميز الأفراد ، من خلال عمل الفريق ، وتعاون المجموع ، فتلك مسؤولية عقدية ، إنسانية ، عمرانية ، حضارية ، وذلك هو السبيل ، لكي يُحْيُوا موات شعوبهم ، ويبعثوا الحياة ، في قيمهم وغاياتهم الساميـــة ، التي ورثوها عن آبائهم ، والتي هي بقية عصور الروح والنور ، في ضمير الإنسانية .

قال بيدبا : قلت : نعم أيها الشيخ الجليل ، على هؤلاء الشباب ، وعلى هذه الشعوب ، أن يدركوا أهميـــة التعاون ، والعمل المؤسسي ، وروح الفريق ، في تنظيم حياتهم ، وأن يقلعوا عن الفكر الفردي من البساطـــة والبدائيـــة ، الذي يقوم على أحلام بطولات السادة الشجعان المحظوظين وعنترياتهم ، لإنقاذ البؤساء والضعفاء والمحرومين ، فالحال في هذا الزمان غير الحال ، والعصر غير العصر ، ولم يعد للرمح والسيف والخيل والليل والبيداء موضع ؛ فقد أصبحت الحياة ، والحضارة ، والعمران البشري في عالم اليوم ، وما سيأتي بعده ، نتاجُ علمٍ ، ومعرفةٍ ، وتعاونٍ ، ومؤسساتٍ ، ونظمٍ ، ومن دونها لا تكون قدرة ، ولا عمران ، ولا يكون بناء ، ولا نمو ، ولا إنتاج ، ومن لا يجيد العلم ، والبحث ، والدرس ، والعمل ، وبناء فريق العمل ، ومؤسسات الإدارة والإنتاج ، ويربي صغاره على

تشرب مفاهيمها ، وإجادة أدائها ؛ فليس له في عالم الحضارة ، والقدرة ، والقوة ، والعزة مجال ، ولا في سباق الأمم ، في هذا الزمان ، مكانٌ أو موضع .

قال الشيخ الجليل ابن بطوطة : نعم يا بيدبا ؛ أعلم الشبابَ والصغارَ والكبار في كل البلاد أن النجاح والعزة والقدرة إنما يكمن اليوم في تنمية التعاون ، وتنمية روح الفريق ، وتنمية بناء المؤسسات ، في كل مجالات الفكر ، والبحث العلمي ، والعمل والإنتاج ، وأعلمهم أيضًا أنه لا مفرَّ يا بيدبا ؛ من أن يدرك كلُّ الشبابِ ، وكلُّ الشعوبِ ، وكلُّ القُوَّاد ، وكلُّ الصغارِ والكبار ؛ أن روح الفريق ، وبناء المؤسسات ، هي مفاتيح القدرة ، والعزة ، والحضارة ، والعمران ، في عالم اليوم ، وعالم الغد .

إن أبطال هذا العصر ، وما يليه من عصور كثيرة ، ليسوا يا بيدبا ، أصحابَ الهبَّات العنترية ، بل هم المفكرون ، والعلماء ، والباحثون ، والعاملون الساهرون في جدٍّ وصبر وجلَد ، بالعمل ليل نهار ، في المعامل ، والمصانع ، والمناجم ، وفي الجامعات ، وقاعات البحث والدرس ، وفي أعماق الغابات ، وفي فيافي الصحراء ، وذرى الجبال ، وفي قاع البحار ، وعنان الفضاء ؛ يقيمون صروح القدرة ، والمعرفة المتطاولة ، طَبَقًا عن طَبَقٍ ، إلى آفاق متسعة مترامية من أسرار الكون ونواميس الوجود وقدراته .

قال بيدبا : هل تسمح لي أيها الشيخ الجليل ، وقد أمتعتنا ، في الجلسة الماضية ، بقصة الديك ، أن أمتعك بقصة من حياة الحيوان ، التي درستها ، وشاهدتها بأم عيني ، فأنت تعلم مدى حبي وشغفي بحياة الحيوان ، والدروس التي يمكن أن يستفيدها الإنسان منه ، عظةً وعبرةً ، وهي قصة تتعلق بأهمية روح الفريق ، التي بها استطاعت الكلابُ المتوحشة ، على الرغم من ضعفها وضآلتها ، أن تأكل بقرَ الوحش برغم ضخامته ، وقوته ، وقرونه الحادة الطويلةِ ، المشهرة كالرماح والسيوف المسلطة .

قال الشيخ وقد انبسطت أسارير وجهه : مرحبًا يا بيدبا ؛ كُلِّي وكل الحاضرين أذانٌ صاغيـة لما لديك من خبر وحكمة ، وعجيب أن تستطيع الكلاب المتوحشة ، على ضآلتها أن تأكل البقر الوحشي ؛ التي لا يُتَصَوَّرُ أن يستطيع كلبٌ الوقوف أمامها ، وإلا كان نصبيه الموت الزؤام ، دون أن ترمش عيون البقر الوحشي الجميلة ، طرفة واحدة .

قال بيدبا : صدقتَ أيها الشيخ الجليل ؛ فلا مجال لمقارنـة قوة الكلاب ، وقوة البقر الوحشي ، ولكن الدرس والعظة هنا أيها الشيخ الجليل ، هو في قيمة التعاون والتآزر وعمل الفريق ، الذي أشرت إليه في درسك الحكيم ، عن المؤسسات ، وعن التعاون والتآزر ، وعن عمل الفريق ، وعن المؤسسات في عالم اليوم .

قال الشيخ ابن بطوطة : لقد زدتنا شوقًا إلى ما عندك ؛ فأسمعنا يا بيدبا ، وارِ غُلَّةَ فضولنا .

قال بيدبا : هذه القصة ، بل هذه الواقعة ، أيها الشيخ الجليل ، موضعها هو شرق أفريقيا ؛ حيث يعيش بقر الوحش ، في تجمع هائل ، يضمُّ الألوف المؤلفة من هذا الحيوان الضخم القوي الجميل ، وله رحلة سنوية ، لعدة آلافٍ من الأميال ، يقطعها كلَّ عام ؛ يتبع فيها المياه والمراعي والكلأ .

وما يهمني أن أرويه اليوم من مشاهداتي لهذا الحيوان ، هما أمران مدهشان في أصل طبع هذا الحيوان وخلقه .

قال الشيخ : أتحفنا يا بيدبا ؛ فما هو الطبع الأول ؟

قال بيدبا : الطبع الأول ؛ هو أن كامل ألوف القطيع تلد في أسبوع واحد ؟

قال الشيخ : ولكن لماذا تلد كلها في أسبوع واحد ؟

قال بيدبا : لولا أنها أيها الشيخ الجليل تلد في أسبوع واحد ، لهلكَ نسلها وانقرضَ .

قال الشيخ : ولكن كيف يحدث ذلك يا بيدبا ؟

قال بيدبا : هذا التجمع الهائل والقطيع العظيم ، من بقر الوحش ، يتبعه قطعان من الكلاب المتوحشة ؛ التي تأكل صغار البقر الوحشي ومواليدها ، ولو أن البقر كان يلد على

فتراتٍ ، وتباعد في موعد الولادة ؛ لقضت الكلاب الوحشية ، على كل ما يولد من صغار البقر الوحشي ، أولًا بأول ؛ ولكن لأن القطيع يلد في أسبوع واحد ، فإن الكلاب المتوحشة سوف تلتهم جزءًا من المواليد الصغار ، فإذا كبر الباقون فإن الكلاب الوحشية لن تستطيع أن تقترب منهم ، أو تهاجمهم .

قال الشيخ الرحالة : إن ما تقوله يا بيدبا عجيبٌ ؛ ولكن كيف تستطيع الكلاب المتوحشة ، في المقام الأول أن تقترب من صغار البقر الوحشي ، وأين أمهاتهم ، ألا تأبه لما يجري لصغارها ومواليدها ، وتحميهم ، فذلك في أصل فطرة الأمومة ، فما تقوله يا بيدبا لا يكاد يصدقه عقل .

قال بيدبا : على رسلك أيها الشيخ الجليل ، فما تقوله حقٌّ ، فإن أمهات صغار بقر الوحش ، تستميت في الدفاع عن صغارها ، ولكن غباء بقر الوحش ، وحماقتها ، برغم قوتها ، هي السبب في فقد صغارها ، كما أن ذكاء الكلاب الوحشية ، وتعاونها ، وبناء روح الفريق الذي حدثتنا عنه ، هو السبب في التغلب على بقر الوحش ، القوي الغبي ، وقدرتها عليه ، وانتزاع الصغار من بين أذرع أمهاتها .

قال الشيخ : أسرع بربك يا بيدبا ، وأخبرنا ، كيف

يمكـن أن يحدث ذلك ؟ فلا نكاد نصدق ما تقوله أو نعقله .

قال بيدبا : السرُّ ، أيها الشيخ الجليل ، أن الكلاب الوحشيـة لا تقترب من البقرة الأم فُرادى ، فلو أن أي كلب اقترب وحده من الأم فإنه لن يستطيع أن يصل إلى الصغير ، وقد يكون مصيره الهلاك على قرون البقرة الأم .

قال الشيخ : إذًا كيف يقتربون من الأم ومن وليدها ؟

قال بيدبا : تكوِّن الكلاب الوحشيـة ، التي تريد أن تأكل صغيرًا من صغار بقر الوحش ، فريقًا من ثلاثـة كلاب ، يحيطون بالبقرة المعنية ، وبصغيرها ، ويتقدم واحدٌ منها نحو الصغير ، فتنطلق الأم ، بكل قوتها وعنفها ، وتسدد قرونها نحوه ، ويرتد الكلب ، والبقرة تتبعه ، وتستمر في الجري خلفه حتى يتقدم كلبٌ آخر نحو الصغير ، فتترك الأم الكلبَ الذي كانت تطارده ؛ لتهاجم الكلب الآخر الذي يهاجم صغيرها ، والأم تتبعه ، فيتقدم الكلبُ الثالثُ نحو الصغير ، وتركض الأم من جديد خلفَ الكلب المهاجِم لحمايـة صغيرها ، ومهاجمته ؛ ليتراجع ويهرب .

وهكذا يستمر الكر والفر بين الأم من جهة ، وفريق الكلاب الثلاثـة من جهة أخرى ؛ إلى أن ينال التعب مناله من الأم ؛ بحيث لا تستطيع جريًا ولا دفاعًا عن صغيرها ؛ عندها ينْقض فريق الكلاب المتوحشة ، على الصغير ، أمام

عيني أمه ، ويأخذونه فريسةً لذيذةً سهلـةً ، والأم تنظر إلى صغيرها تجره الكلاب وتفترسه ، وهي لا تستطيع لهم صدًا ولا ردًّا .

قال بيدبا : هل أدركتَ يا سيدي كيف يتم الأمر ؟ وكيف تتغلب الكلاب المتوحشـة ، على الأبقار الوحشية ؛ برغم ما تتمتع به الأبقار الوحشية من إمكانات وقوة هائلـة ، وقرونٍ حادةٍ كالرماح أو السيوف المشرعة .

قال الشيخ الرحالة : ولكن أين الأبقار الأخرى ؟ ولماذا لا يهبون لنجدة الأم ؟ هل ينتقى الكلاب أمًّا معزولة عن القطيع يا بيدبا ؟ قال بيدبا : لا يا سيدي الشيخ ؛ البقر يسير قطيعًا واحدًا ، والأم التي تهاجمها الكلابُ ، وتهاجم صغيرها ، ليست في معزل عمَّن سواها من الأبقار ؛ بل هي على مشهد ومرأى منهم ، ينظرون إلى المعركة ، بين البقرة الأم وصغيرها من جهة ، وفريق الكلاب المتوحشة من جهة ، بأعينهم الواسعة ، المبحلقة الجميلة ، دون أن يرمش لأحدٍ منها جفنٌ ، أو يحركوا في عونها ساكنًا ، إنه ياسيدي الشيخ ؛ لو أن بقرة واحدة أخرى ، أو ثورًا واحدًا آخر ، أعان الأم المكروبة ، لما أمكن للكلاب المتوحشة أن تقترب من الصغير ، أو أن تفترسه إطلاقًا .

هذا هو الدرس ، وهذه هي العبرة ؛ فإن الأبقار بغبائها وحماقتها ، لا تتعاون ، وكل واحد منها يواجه مصيره

منفردًا ، ولا يأبه أحدٌ من الآخرين ، إلى ما يجري لأي أحدٍ آخر ، سوى نفسه إلى أن يحين حَيْنُهُ ، ويصبح الواحد منهم هو ذاته الفريسةَ ، وحينها يسقط في يد أعدائه ، لقمةً سهلةً سائغةً ؛ فلا يجد له بدوره معينًا ولا نصيرًا يقف إلى جانبه في محنته وشدته ، ويندم ، حين لا ينفع الندم .

هذا هو الدرس ، وهذه هي العظة والعبرة يا سيدي الشيخ ؛ والتي توضح كيف يتغلب ، حتى الجبان الضعيف ، على مَنْ هو أقوى منه ؛ لكونه قد عرف معنى التعاون ، ومعنى روح الفريق وقدرته ، وكيف يخسر ، حتى القوي القادر مثل البقر الوحشي ، برغم ضخامته وقوته وقرونه التي لم تنفعه أمام مَنْ هو في الحقيقة أضعف منه ؛ لأنه لم يعرف معنى التعاون ، ولا معنى روح عمل الفريق .

قال الشيخ ابن بطوطة : الآن أدركتُ مغزى ما ذكرتَ يا بيدبا ، وكيف تصبح القوة ضعفًا ، والضعف قوةً ، إذا عرفنا معنى التعاون ، ومعنى المؤسسات ، ومعنى روح عمل الفريق .

قال بيدبا : أنا أفهم أيها الشيخ ، أن يقع في هذا الغباء ، وهذه الحماقة حيوانُ البقر ، ولكن لا أفهم ، ولا أدرك ، كيف تقع شعوب بعض الأمم ، من بني الإنسان ، في ذات التصرفات الغبية الحمقاء ، فتتفرق وتتنازع ، بل وتستعدي أعداءها على أنفسها ؛ ليقعوا الواحد تلو الآخر فرادى فريسةً

لأعدائهم ، ومع ذلك يظلون جيلًا بعد جيلٍ ، وقرنًا بعد قرنٍ ، على حالهم ، من الغفلــة والبلادة والغباء ، حتى يلقى جميعُهم واحدًا تلو الآخر ، بغبائهم وحماقتهم ذات المصير من الخسف والذل والمهانة والدمار .

قال الشيخ ابن بطوطة : نعم يا بيدبا الفساد ، والطمع ، والمصالح العاجلة الخاصة ، والتسلط الناجم عن تشوه الرؤية ، وعن تشوه منهج الفكر ، وسوء التربية ، يعمي الأبصار والأفئدة ، ويجعل البشر أغبى من البقر ، وصدقت يا بيدبا يوم قلت في كتابك الشهير « كليلة ودمنة » عبارتك التي ذهبت مضرب الأمثال : « أُكلتُ يومَ أُكل الثورُ الأبيضُ » .

عند هذا الحد أدار الشيخ ابن بطوطة نظره فيمن حوله ، وكلهم آذان صاغية ، برغم طول الجلوس ، وما نالهم من التعب ، وقال يخاطبهم : كفانا ما أدرنا اليوم من الحديث ، لنستكمل ما بقي منه في جلسة الغد ، بإذن اللّه .

قال بيدبا : وقبل أن أنصرف ، سألت الشيخ الجليل ، إن كان هناك ما يهمه أن يخبرنا به ، قبل أن يتركنا ، ويشد رحال التجوال ، في أرض اللّه الواسعة .

قال الشيخ الجليل : نعم هناك أمران أريد أن أؤكدهما ، وأعيد غدًا تذكيرك وإخوتك بهما أيها الحكيم الفيلسوف ،

قبل الرحيل ، وبهما أرجو أن أنهي حديثي إليكم ، قبل الفراق ، وقبل أن يقلع الشراع إلى أرض الأهل والأحباب .

٩
الخروف الأحمق يطلب العشب من يد الجزار

وهكذا بكَّر الحكيمُ بيدبا وإخوتُه في صباح اليوم التالي بالذهاب إلى نزل الشيخ الرحالة ، واصطفوا حوله ، وبادره بيدبا بالسؤال قائلًا : لقد وعدتنا أيها الشيخ الجليل يوم أمس ، بالحديث عن أمرين ، فما هما هذان الأمران أيها الشيخ الجليل ؟

قال الشيخ ابن بطوطة : على الرحب والسعة .

أما الأمر الأول منهما أيها الحكيم بيدبا ؛ فهو توضيحٌ يعين على فهم معنى الرؤية الكونية الكلية ، ومعنى الوجود الإنساني وحياة الإنسان على الأرض ؛ لأن وضوح الرؤية الكلية من أخطر ما تواجهه الأمم ، ويجب توضيحها بكل السبل ، ومفتاح الأمر يا بيدبا ؛ معرفة أن الأمم والثقافات والحضارات على نوعين يجب أن نعلمهما ، وأن نفرق بينهما ؛ لننجوَ ونفلحَ ، ونحققَ الغاية من حياتنا بنجاح في

هذه الحياة الدنيا .

النوع الأول من الحضارات والثقافات ، هو نوع كلِّيٌّ روحيٌّ نورانيٌّ ، وهو الذي ينظر إلى وجوده بنظرة كلية ، من مبتدئه إلى مآله ، وبذلك يدرك أن لوجوده معنى وغاية ، تجعل منه على الأرض وجودًا بنَّاءً إعماريًّا خيِّرًا ، يلتزم العدل والرحمة والتكافل والسلام ، وينأى عن الجُور والظلم والعدوان .

والنوع الثاني من الحضارات والثقافات ، هو وجود مادي طيني حيواني ، لا يؤمن ، ولا يدرك ، ولا يستجيب إلا لحسِّه ونزواته وشهواته ، ولا يعرف ، على وجه الحقيقة ، لوجوده وحياته ، غايةً ولا معنى ، وهو نوع كالكواسر لا يعرف – بعيدًا عن زيف القول – إلا قانونَ الغاب والغلبة والعدوان والافتراس والظلم ؛ التي يدعونها « سياسة الأمر الواقع » ، و« المصالح القومية » .

هذا التقابل ، هو الذي يمثل ثنائية الروح والطين في حياة الأفراد والأمم والحضارات ، وهو الذي يمثل ثنائية الخير والشر ، وثنائية الحق والباطل ، وثنائية العدل والظلم ، وهو في نهاية المطاف يمثل ثنائية قانون النور والروح ؛ في أن « القوة للحق » ، وقانون الطين والغاب ؛ في أن « الحق للقوة » .

وقانون الغاب في أن « الحق للقوة » في المجتمعات وبين

الأمم ، يتمثل في هذا العصر أيها الحكيم بيدبا ، في العنصريات والعرقيات ، وفي سياسات القوة ، والتسلط ، والهيمنة ، والعدوان على الشعوب ، وفي جشع الاستغلال وظلم الاستعمار ، وفي الكيل بمكيالين ، وفي التفسخ والانحلال ، وضياع الأخلاق ، لدى تلك الشعوب .

لهذا فإن على أبناء كل الأمم والحضارات يا بيدبا ؛ أن يعلموا ويتيقنوا قبل فوات الأوان ، وبلوغ مرحلة إدمان السلوك الخاطئ ، والممارسات السيئة ؛ لأي الرؤيتين ، وأي القانونين ، هم ينتسبون ، وإلى أي الطريقين هم يقصدون ، وفي ضوء ذلك تكون وجهتهم ، ويكون إصلاحهم ، وتكون جهودهم ، ويكون لقاؤهم وتفاعلهم وتنافسهم وتدافعهم السَّلامي الغايةَ مع سواهم .

يا بيدبا من علم غايته ، وعلم وجهته ، واتضحت رؤيته ، جَدَّ في طلبه وعمله ، ومن غامت رؤيته ، وجَهِلَ غايته ، وما عَلِمَ لأي فريق ينتمي ، وإلى أية وجهة يسير ، وفي أي موضع يقف ، تجده قد فترتْ همتُه ، وضعفتْ عزيمته ، وانقطع طلبُه ، وتهدم عمرانُه ؛ ليصبح مهمشًا لا في العير ولا في النفير ، لذلك يا بيدبا ؛ نجد أن كثيرًا من الأمم ، قد تراجعت مكانتها ، وتهدم بناؤها ، وخملت همتها ، حين غبشت رؤيتها ؛ فعميت بصيرتها ، وتشوه منهجها ، وعانت الشعوذة والخرافة في عقليتها ، والبلادة والرهبة

والجبن في وجدانها ، ولم يَعُدْ على وجه الحقيقة لحياتها معنى ، ولا لوجودها غاية ، ففترت همم أبنائها ، وانقطع طلبهم ، وفسد نظامهم ، وتهدم عمرانهم ، وأصبحوا فريسةً للطامعين .

لذلك فإن أول أمر يجب على أصحاب الفكر والرأي والمشورة والإصلاح في الأمم هو أن يعملوا على وضوح رؤية أممهم ؛ ليأخذ الناس حياتهم مأخذ الجد ، ويجدُّوا في الطلب ، ويبدعوا في عمران حضارتهم ، وهذا على وجه الحقيقة معنى الحياة ، وغاية الوجود وتعاقب الأجيال ؛ حيث المتغير الوحيد ، هو تطور الحضارة والإبداع والعمران ، هكذا خلق اللّه البشر ، ولهذا خلقهم ، وهكذا أراد .

دعني أكرر على مسامعك يا بيدبا ماخبرته على مرِّ الأيام أنه من دون وضوح الرؤية يا بيدبا لا يكون عمل ولا طلب ، ولا يكون جد ولا صبر ، ولا تكون مكانة ، ولا تكون ثمرة ، ولا يكون إبداع ، ولا يكون إعمار .

إن مثل الأمم في رؤيتها وطلبها - أيها الحكيم بيدبا - مثل النمر الكاسر حين يرى ظبيًا ؛ فهو يعدو في طلبه كالريح العاصف بعد أن كان يمشي الهوينى في كسلٍ ومللٍ لا يدري إلى أين يتجه وإلى أين يذهب ، ومثله مثل الثعلب يتجول في الغابة فاترَ الخَطْوِ كالتائه ، فإذا رأى أرنبًا هبَّ في طلبه يطوي الأرض طيًّا ، بكل قوته وحيلته ، لا ينال منه

تعبٌ ولا كللٌ ولا ملٌ ، ومثل صاحب الرؤية مثل القرد الذي يهب في همة ونشاط يتسلق الأغصان بكل خفةٍ ومهارة حين تلمح عيناه شيئًا من الثمر في أعلى الشجر .

بل إنني أسألك أنت يا بيدبا ؛ إذا كنت في حالة كسلٍ وتبلد لا رؤية عندك ولا غاية تطلبها ، أتراك تفعل شيئًا أم تبقى ساكنًا لا تبذل جهدًا ولا تطلب حاجةً ؟ وهذا أيها الحكيم على عكس حالك ، حينما تكون لك رؤيةٌ وغايةٌ تطلبها وحاجةٌ ترجوها ؛ فأنت تفكّر وتخطط وتسعى وتدبّر أمرك لتبلغ غايتك وتحقق حاجتك ؟ بل إنني أسألك أيها الحكيم أن تنظر حتى إلى صغيرك حين يحس حاجةً أو يرى ما يروق له كيف يفعل ، وقارنْ حاله هذه بحاله حين لا تكون له غاية ولا يرى ما يرغب في تحقيقه والحصول عليه ؟ إنها سنة من سنن الكون يا بيدبا ، وإن من غفل عنها دفع الثمن .

وهذا أيها الحكيم بيدبا هو حال الأمم ، وحال أفرادها ، دون غاية ودون رؤية ودون منهج فكرٍ سببي سوي ؛ فإنه لا سبيل إلى إعمارٍ أو إبداع ، ولكن الأهم يا بيدبا في أمر الرؤى الحضارية ، وأمر الإعمار والإبداع ، هو مآل هذه الغايات والرؤى في ميزان الروح والمآل ، وهو الميزان الحق لمعنى الوجود الذي تَحيا من أجله الأفرادُ والأممُ ، وتعمر وتبدع في حياتها في المدى المقدَّر لها على هذه الأرض ؟

هل هو في سبيل الحق والعدل ؟ أم هو في سبيل الجُور والظلم ؟ وهل هو في سبيل الخير والإصلاح ؟ أم في سبيل الشر والإفساد ؟ .

نعم المهم في ميزان الحياة والوجود أيها الحكيم بيدبا ؛ وهو الأمر الذي يجب ألا يغيب عن ضمير كل عاقل حتى لا تضيع الحياة في ميزان المعاني والغايات ، فيندم ولات ساعة مندم ، هو لأي غاية توجه الأمم والأجيال والحضارات جهودها وتصريفاتها في الحياة والأحياء والوجود ، هل هو انتصارٌ للحق والعدل والخير والسلام ؟ أم هو غلبةٌ للجور والظلم والعدوان ، هذا هو مقياس النجاح أو الفشل ، ومقياس أداء أمانة العلم والقدرة ، أو خيانة أمانة الأداء وغلبة الشر والظلم والظلمة والطين ؟ هذا هو الأمر الأهم ، وهذا هو غاية الوجود ومعنى ثنائية الخيار ، وهذا هو في نهاية المطاف معنى المصير والمآل .

وإذا اتضحت الغاية ، واتضحت معها الرؤية ، أيًّا كانت أيها الحكيم بيدبا ، عَلِمَتِ الأممُ ما تفعل ، وعلمت ما تأخذ وما تدع ، وسوف تفعل ما تفعل ، وتأخذ ما تأخذ ، وتدع ما تدع ، ولكن بجدٍّ وقوةٍ وإبداع ، والفلاح والنجاح هو أن يكون هذا الأمر في سبيل الخير ، لا في سبيل الشر وعاقبة الخسران .

قال بيدبا : نعم أيها الشيخ الجليل ، ما أظنك بعد كل

ما دار بيننا وحدثتني عنه إلا وقد هديتني إلى طلبتي ، وأدركتُ الآن لماذا تتخلف كثيرٌ من الأمم وتفشل جهود كثيرٍ منها في النهوض من الكبوة ، وتفشل في اللحاق بالركب ؛ وذلك لما أصاب رؤيتها من غبش ، ومنهجها من تشوه ، وفكرها من تخلف ، ووجدانها من انحطاط ؛ الأمر الذي أفقدها جِدَّ الطلب ، وقدرةَ الإبداع ، وأورثها الذل والفقر والضياع ، لا تتقن عند ذلك إلا المحاكاة وداء التقليد العشوائي الأعمى ؛ ليكون حالها في جهالةِ تقليدها ، وعشوائية انتقائها ؛ فحالها حين تأخذ ما تظنه مفيدًا بجهالة ، ودون دراية بحالها وحال من تحاكيه ؛ مثل حال مَنْ يأخذ الأكسجين في وريده بدل أن يأخذه من أنفه ورئتيه ، فيكون في ذلك هلاكه وموته .

والآن أيها الشيخ الجليل ما هو الأمر الآخر ؟

قال الشيخ : يا بيدبا ؛ الأمر الآخر الذي لا يقل أهمية عن أي أمر سبق أن حدثتك عنه ، وهو أمر الخلط بين المفاهيم ، وأول خلطٍ أود أن أحدثك عنه هو أمر الخلط بين الذِّكْر من جهة ، والجهاد في سبيل الحياة وإعمارها من جهة أخرى ؛ فالذكر وإرشاد الهدى ليس بديلًا عن جهادات الحياة في العمل والسعي ، والإبداع للتسخير ، وبناء الحياة وإعمارها ؛ بل إن الذكر هو دليل العمل ، ولامعنى لدليلٍ لا يؤدي إلى غايته في العمل وإغناء الحياة .

أما الخلط الآخر الذي أود أن أحدثك عنه فهو أمر الخلط بين الدولة وبين الدعوة ، خاصةً في عهود اشتداد الصراعات والمواجهات بين الشعوب والأمم ؛ فإن ذلك يعشي الرؤية ، ويضر بمستقبل علاقات الأمم والحضارات ، فيخرجها من دائرة التكامل والتعاون والحوار إلى دائرة الصراعات والفتن والحروب .

فالدعوة يا بيدبا هي عاطفة إخاء إنساني ، وكلمةٌ حُسنى ، وحبٌّ وإرشادٌ إلى طريق الخير ، لا مجال فيها - لكونها علاقة إنسانية نبيلة - للإرغام أو الكره أو الغصب أو الغضب ، وهذا غير أمر الدولة وتصريف شؤونها ، ومواجهة تحدياتها .

فالدولة يا بيدبا - على خلاف الدعوة - هي كيان بشري بكل مكوناته ؛ أي : إن الدولة أرض وشعب وأنظمة ومصالح وثقافات وتقاليد ، والدينُ والعقيدةُ اللذان هما موضوع الدعوة جزءٌ واحد من مقومات الدولة ، وهو جزءٌ ولا شك يؤثر في سلوك الدولة وتفاعلاتها وردود فعلها تجاه مَنْ حولها من الدول والشعوب ، لكنهما لا ينفردان بالتأثير في سلوك الشعوب والدول ؛ ولذلك فإن علاقات الدول ومصالحها مع الآخرين ، سواءٌ أكانت وديةً أم عدائيةً ؛ فإن الدولة منها ، أي دولة ، حين تكون ضحية عدوان ، فإن من حقها ومن حقِّ شعبها أن تواجه العدوان ، وأن تدافع عن

نفسها وحقوقها ، بكل ماتستطيعه ، وبكل مسئولية ، دون مبالغةٍ أو تجاوزٍ للحاجة أو الضرورة التي تُقَدَّر بقدرها في ضوء الحال والأمر الواقع ، فلا يرتكب باسم الدفاع عن النفس أية أعمالٍ مدمرةٍ لاحاجة ولا ضرورة لها ، وخاصة حين يوجد لها بديل متوازن أقل ضررًا على أطراف النزاع ؛ لأن حياةَ الإنسان وحقوقَه وممتلكاته - مدنيًّا كان أم عسكريًّا - حقٌّ مقدس ومسؤولية عُظمى لا يصح التضحية بها دون مسوِّغ مشروع ، ودون ضرورة قصوى ليس عنها من محيص ، هذه هي الحقيقة في علاقات الدول ، وأي قولٍ غيره كذبٌ وزيفٌ وحروبٌ نفسية يَغُشُّ بها المزيِّفون أنفسَهم ، ولا تنطلي على أحدٍ حتى ولا عليهم ، ولا يلتزمها حتى قائلها قبل أي أحدٍ سواه ، وكل أحداث الواقع والتاريخ وضرورات الفطرة والبقاء شاهد على ذلك .

فإذا كانت الدعوة يا بيدبا هي كلمة حُسنى للخير والهداية والإرشاد ، فالعالم في منظورها ، وفي منظور الدعاة ، لا يكون إلا دار قبول ودار دعوة ، أي بلاد مَنْ قَبِلَ وآمن بالدعوة ، وبلاد مَنْ لم يقبل الدعوة ولم يؤمن بها بَعْدُ ، ويجب مواصلة دعوتهم رجاء هدايتهم وقبولهم لها في المستقبل بإذن اللَّه .

أما الدولة يا بيدبا فهي كيان ومصالح ، تتعرض علاقاتها للسلم والحرب ، والود والعداء ، ومن مكوناتها الدين

والعقيدة ، ولها ثقافتها ، وتتعلق بها الحقوق والمصالح ، وتعروها القوة والضعف ، وكل ما سبق هو عوامل تؤثر مجتمعة على سلوك الدولة وعلاقاتها ؛ ولذلك فإن العالم في منظور الدولة على ثلاثة أحوال هي : دار السلم ، ودار العهد ، ودار الحرب .

فدار السلم هي أمةٌ وبلادٌ تكوِّن في جوهرها مجتمعًا واحدًا ، ولها مصلحة واحدة ، وتخضع لقيم وتشريعات وقوانين ملزمة موحدة يُقْضَى فيها بين الناس على أساسها بالعدل والمساواة ، ولا مشروعية يا بيدبا في دار السلم ، التي هي دار مواطنةٍ ورَحِمٍ ، إلا للوسائل السلمية والمدنية ، ولا موضع لاستخدام القوة والعنف في أي نزاع أو دعوة إنصافٍ أو إصلاحٍ .

ودار العهد ؛ هي بلدانٌ ودولٌ يربطها عهدٌ قد يكون بين مجتمعين ، أو يكون بين عدة مجتمعات ، لهم علاقات سلام مشروطة بشروط العهد ، وعلى أطرافه الوفاء به ؛ ولذلك فإن على كل طرف واجب الوفاء بالعهد ما أوفى الطرف الآخر به .

ودار الحرب ؛ هي البلاد والدول التي تعلن العِداء وتسعى بالضرر ، وإعلان العداوة والحرب ، دون وجه حقٍّ أو عذرٍ مشروع ، فتكون العلاقة معها بالطبع علاقة حرب وعداء ودفاع مشروع عن النفس .

هذا هو جوهر طبيعة الدعوة وأسلوبها ، وهذا هو جوهر طبيعة الدولة وعلاقاتها ، هكذا كانت فيما مضى ، وهكذا ستبقى إلى أمدٍ طويلٍ ، إلى أن تتكاتف الدول والمجتمعات ، وتتآلف الإنسانية ، وتلتقي في تجمُّعٍ واحدٍ ، وكيان عالمي سلمي واحد ، وعلى أمرٍ سواء من العدل والأمن والسلام ، في ظلِّ مصلحة واحدةٍ ، وقيمٍ وقوانين وتشريعات عامة توافقية واحدة ، وتكون ملزمة ؛ بحيث تلتزم العدلَ والتكافلَ ، وتوفِّر الأمن والسلام للجميع .

غير هذا يا بيدبا خلطٌ وزيفٌ وافتراءٌ لا يخدم إلا الحروب النفسية للمهيمنين الكواسر ؛ لبثِّ روح الهزيمة ، وقتل روح العزيمة والمقاومة في ضحايا الظلم والعدوان .

ولذلك فإنه ليس من الحقِّ أو الصواب في عالمنا اليوم ، وفي حروبه النفسية ، أن تحمل العقائد والأديان ، أو أي عنصر من عناصر كيان الدول وحده مسؤوليةَ تصرفات الدول ، بل لابد من أن ينظر نظرةً كلِّيةً إلى الموقف لمعرفة الأسباب الحقيقية ، والعناصر المؤثرة المحرِّكة ، والمسؤوليات المترتبة ، وعدم إصدار المنصفين وأنصار العدل والسلام الأحكامَ والمسؤوليات جزافًا ؛ تبعًا لأغراض المعتدين وخطط حروبهم النفسية .

وإذا كانت الأديان والعقائد يا بيدبا تدعو إلى السلم والتسامح فإن من واجبها أن تقرَّ حقَّ الدفاع عن النفس لمن

يُعتدى عليه ، وليس من الصواب في شيء أن يطلب بعض أطراف القوى المعتدية إلى رجال الأديان والعقائد ، وإلى رجال الفكر والكلمة ، في بلاد الشعوب المقهورة ، بغض النظر عن حقيقة الأمر ومواقف أطراف الصراعات ، أن ينكروا دون قيدٍ أو شرطٍ على هذه الأمم والشعوب المستضعفة حقَّها في الدفاع المشروع عن نفسها ، ودفع المظالم عن شعوبها ، وحفظ حقوقهم وأرضهم ودمائهم ، وأن يطلبوا منهم دعوةَ هذه الشعوب إلى قبول الخنوع والخضوع للأقوياء المعتدين ، وأن عليهم أن يديروا معارك دفاعهم عن أنفسهم ، وعن حقوق شعوبهم ، على القواعد وبالوسائل والإستراتيجيات التي يفرضها الأقوياء المعتدون ، والتي تناسب إستراتيجياتهم وإمكاناتهم ، بما لا يترك لهذه الدول والشعوب المقهورة المظلومة أيَّ فرصةٍ للدفاع المشروع الفعَّال عن نفسها ، والخروج من الصراعات الظالمة بوضع يسمح لها بالوصول إلى حلول سياسية مناسبة معقولة ، حتى لا تدفع هذه الشعوب وشبابها إلى الإحباط وردود الفعل اليائسة ، خاصةً حين يكون العدوان مدمرًا لكيانات هذه الدول والشعوب ، وكرامتها ، ولمستقبل أجيالها ومصالحها الأساسية المشروعة .

وكما ترى يا بيدبا ؛ فإنني لا أتحدث في عالم الكواسر ، في هذا الزمان ، عن حلول عادلة لا تعرفها « سياسات

القوة » ، ولكنني أتحدث عن حلول سياسية معقولة ؛ لأنه لا يستطيع عاقل في « عالم الكواسر » و« سياسات القوة » و« الأمر الواقع » و« شريعة الغاب » ، مهما زيَّف المزيفون ، أن يتحدث عن حلول عادلة دون أن يُرمى بالغباء والجنون .

إن من ينكر على الشعوب حقها في الدفاع عن النفس ، فإنه واهمٌ ، إن ظنَّ أن هذه الشعوب والأمم ، سوف تصغي لمثل هذه الدعاوى والمطالب ، من أي متحدث كان ، وبأي اسم كان ، وعلى العقلاء ، وعلى كلٍّ من تهمهم مصالح شعوبهم ، ويهمهم سلام الإنسانية وأمنها ، أن يتعلموا الدروس ، ويأخذوا العبر من سالف تجارب الشعوب ومآسيها ، وما جرته أطماع أصحاب المصالح الجامحة والجشع المفرط والهوس والخرف العقدي ، من دماء وخسائر لشعوبهم قبل سواها ، ولا مخرج من مثل هذه المآزق إلا أن تأخذ الأمم والشعوبُ وعقلاؤها أمرَ سياساتِ حكوماتِها ، وأمرَ مصالحِها ، ومصائرها ومصالح أبنائها ودمائهم في يدها .

نعم يا بيدبا إن على الشعوب والدول جميعًا إذا أخلصت في طلب الأمن والسلام أن تتعلم من التاريخ ، وأن العقل والحكمة يكمنان في الحلول السياسية المعقولة ، إن لم تكن العادلة ، ولهذه الدول والشعوب والقادة درس وعبرة فيما يسمى الإمبراطورية العجوز التي لم تكن الشمس تغيب عنها كما يقولون ؛ فالسبيلُ الذي سلكته هذه

الإمبراطورية وحكماء السياسة فيها ، في مواجهة الشعوب وحركات المقاومة فيها ، حين ذرَّ قرنها في أوصال إمبراطوريتها ؛ هو السبيل الحريُّ بالتمعن فيه ، والاستفادة منه ، فقد أبدع ساسة هذه الإمبراطورية ، على عكس سواهم من الساسة الحمقى ، الحلولَ السياسية ، وتخلوا عن سياسات العنف والقهر الخاطئة ؛ فحافظوا على كثيرٍ من مكاسبهم دون حروب ولا سفك دماء .

كما أن على الدول المعتدية المغرورة بقوتها أن تذكر دروس سقوط الغاشمين وزوال الإمبراطوريات البائدة ؛ فما حدث ذلك إلا بسبب الإنهاك ، والاستنفار ، ونزف الدماء والموارد ؛ بمقاومة الشعوب المقهورة التي أحبطها اليأس والظلم ، وأصبحت لشدة معاناتها ، وما تكبدته من كثيرٍ من الآلام والخسائر ، فهي تستميت في انتقامها ومقاومتها ، وتتحمل بجَلَدٍ عجيبٍ ما ينزل بها من خسائر وكوارث ؛ وكأنها لم يعد لديها ما تبكيه أو تخسره ، حتى قال قائلهم : « ضربوا الأعمى على عينه » . قال لهم : لا جديد ! « خسرانة خسرانة » .

يا بيدبا في دروس التاريخ عظة وعبرة لمن يعتبر .

إن ذلك هو السبيل الأَولى والصحيح في علاقات الأمم والشعوب ، خاصةً في هذا الزمان ، وما تملكه الإنسانية من وسائل الدمار ، أما العنف والظلم والقهر ، والاستهتار

بالأرواح والدماء ، والإصرار على السياسات الخاطئة ؛ فإن ذلك لا يولِّد إلا مزيدًا من العنف والخسارة لكافة الأطراف المتورطة فيه ، وعلى كافة الأطراف أن تعود - إن عقلتْ واتعظتْ واعتبرتْ - عن كل ذلك إلى رشدها ، وتضع - بالعقل والحكمة والاعتدال - حدًّا لصراعاتها ، وليذكر الضعيف أن بطش القوي مؤلمٌ ومدمرٌ ، ولا خير في طلبه ، وليذكر القوي أن طول معاناته واستنفاره ضارٌّ ومنهكٌ ومدمرٌ ، بنفس القَدْرِ الذي يؤذي به ضحيته .

ومن المهم يا بيدبا أن ندرك أن مسؤولية القوي والمعتدي هي الأعظم في تدبير الحلول السياسية التي تزيل المظالم ، وتضعف دوافع المقاومة والعنف ، وتتغلب على رغبة الانتقام ودوافعها في النفس البشرية ؛ بهذا فقط يمكن أن يحلَّ السلام والوئام محلَّ العنف والدماء ونوازع الشر والانتقام في النفوس ، وهذا وحده هو الذي يعيد للعقائد والأديان قوة تأثيرها الفعَّال في الدعوة ؛ وفي تمكين دعائم السلام والوئام بين الدول والشعوب ، وإلا فليكف المعتدون والطامعون عن اللوم ، فلا لومَ إلَّا عليهم ، ولا سببَ إلَّا من عدوانهم ومن أطماعهم وسياساتهم .

وتابع الشيخ الجليل حديثه قائلًا : ومن المهم يا بيدبا ؛ أن تدرك الشعوب الضعيفة أننا إذا تدبرنا طبائع النفوس ، في الأفراد والأمم ، خاصةً إذا تملكها غرور القدرة والقوة ، وإذا

تملكتها دوافع الجشع والطمع ، فإن هذه الأمم الضعيفة تسهم بضعفها في إثارة أطماع الطامعين ، وجشع الجشعين ، وأنها بضعفها تنال نصيبًا من مسؤولية العدوان عليها ، مثلها مثل مسؤولية الماعز البائس الذي ليس له كلبٌ حارس ؛ وذلك لما يثيره ضعف الماعز في قلب الذئب من غريزة الافتراس حين لا يرى كلبًا يحرس الماعز ويدفع عنه ، فالقوة والقدرة أمرٌ لا غنى عنه لكل دولة وشعب في هذا العالم .

البحث ، والدرس ، والعلم ، والمعرفة ، والتقنية ، والعمل ، والإنتاج ، لم يعد أمرَ رفاهيةٍ وزينةٍ وكمالياتٍ ، بل أصبح بمفهوم العصر وتطلعاته وإمكاناته وتحدياته ، وطبيعة القوى المملوءة فيه بالغرور والجشع والطمع وشهوة التسلط ، وسياسات القوة والمصالح القومية ، ضرورةً أساسيةً وحتميةً للرفاه والبقاء والتعامل في هذا العالم شريكًا لا فريسةً ، وعلى كل المحبين للسلام أن يعينوا الشعوب والدول المستضعفة على أن تنهض ، وأن تزدهر ؛ لتصبح شريكًا يتبادل المصالح مع سواه من الشعوب ، لا فريسةً تتصارع عليها الكواسر لنهش لحمها وتمزيق جسدها .

وبالمقابل ؛ يجب يا بيدبا أن تعلم الأممُ والشعوبُ التي أسلمت قيادَها للجشعين والطامعين من أصحاب المصالح الخاصة مقابلَ رشوة هذه الشعوب من قِبَلِ ساستها بزيف

القول ، وتقديم الوعود الانتخابية ببعض ما يهمهم من شؤون أمورهم الحياتية الداخلية الخاصة ؛ كالتعليم والتأمين الصحي والاجتماعي ، وتأمين العمل ، وما إلى ذلك ، مقابل أن تسلم هذه الشعوب لهؤلاء الساسة الجشعين الحمقى ، مصيرَها ومصيرَ دماء أبنائها ، وقرارَ السلم والحرب في سياساتها وعلاقاتها مع الشعوب والدول الأخرى ؛ سعيًا منهم لتحقيق تدبيراتهم العدوانية الظالمة ، دون رقيب ولا حسيب من وعي جمهور الأمة ، ولا علم بأهداف هؤلاء الساسة وأطماعهم ليتحكموا في سياسات هذه الشعوب والدول ، وليسخِّروا قواها وطاقاتها ودماء أبنائها ، ويبددوها ويسفكوها كما يشاؤون ، فيجرون الويلات على أنفسهم قبل سواهم .

وعلى هذه الشاكلة نرى اليوم كثيرًا من الشعوب ، ولاسيما شعوبُ الدول الكبرى والقوية ، تدفع ثمنًا غاليًا حين تغفل وتفرط في أمر الرقابة على سياسات بلادها الخارجية بذات القدر باهتمامها بسياسات بلادها الداخلية ومنافعها الآنية .

هذه الشعوب التي تسلم قيادها للساسة المرضى والجشعين ، وأصحاب المصالح الخاصة يا بيدبا ، مثلهم ومثل قادتهم مثل الخروف يستمتع بالحشائش والعلف من يد الجزار ؛ بل يجري ويسعى ويطلب هذا العلف الذي هو

وعود السياسات المحلية وشؤونها الداخلية ، وهو لا يعلم أن ما يحصل عليه ليس كسبًا ولا نفعًا ولا غنيمة ، بل هو طِعْمٌ يُعِدُّه الجزار للخروف قبل أن يذهب به إلى الذبح في المجزرة ، وهي حروب السياسات الخارجية الحمقاء التي ليس للشعوب فيها على وجه الحقيقة ناقة ولا جمل ، فكم قاد هؤلاء الساسةُ الحمقى والمرضى الجشعون شعوبَهم إلى الحروب والمجازر البشرية التي يهلك فيها الألوف ، بل الملايين من أبناء الشعوب ، وحقًّا يا بيدبا ؛ لو أن هذه الشعوب عقلتْ وأدركتْ ما يدبر لها ، وقد آن لها الأوان – مع تعاظم خسائرها – أن تعقل وتدرك ، وألا تتركَ سياساتها الخارجية دون رقيب ولا حسيب ، لقد أصبح حال هذه الشعوب اليوم مع ساسة بلادهم وتفريطهم بشأن سياسات بلادهم الدولية ، كما تقول الحكمة السالفة بشأن حالِ الخرفان والجزار ، أنها لو عقلتْ ما طمِعتْ ولا طعِمَتْ ولا سَمِنَتْ من حشيش الجزار وعلفه وشعيره وتدبيراته ؛ ليكون مصيرها الخسران والهلاك والذبح ، وتغدو دماء أبناء الشعوب ومصالحها طعامًا لغرور الساسة ومصالح الجشعين المنتفعين .

ما أصعب حال الشعوب ضعيفِها وقويِّها ، في غفلتها وعدم وعيها ، في الخيار بين حال الماعز في فم الذئب ، وحال الخروف في يد الجزار ، وما أسوأ المآل ، وما أحوج

الشعوب إلى أن تمسك مصائرها وسياساتها الداخلية والخارجيـة بيدها ، وبيد من تحسن اختيارهم من قياداتها المخلصين لها ؛ فينهض الضعيف ويقوى ، ويكون شريكَ مصلحةٍ وسلمٍ ، ويمسك القوي والقادر بمصيره ومصير سياساته جميعها بيده ، الداخلي منها والخارجي ، فيحمي مصالحه الحقيقية ، ويحفظ دماء أبنائه ؛ لتصبح جميع الشعوب والدول شركاءَ ، وليعملوا من أجل سلام الإنسان ، كلِّ الإنسان ، ومن أجل أمن الإنسان ، كلِّ الإنسان ، ومن أجل رفاه الإنسان ، كلِّ الإنسان ، ولن تضيق الأرض بأرزاق أهلها وحاجاتهم ، هكذا كانت الأرض ، وهكذا ستبقى ، ما شاء اللَّه لها أن تبقى .

دون وحدة الإنسان يا بيدبا في قصد الخير ، ودون عمل الإنسان وجِدِّه واجتهاده ، وبناء حضارته وإعمارها ، في سبيل الخير والحق والعدل والرحمـة والسلام ، فلا إنسانَ على وجه الحقيقة ، ولا إعمار ولا حضارة ، ولكنه صراعٌ وتظالم حيواني ، ومصيرٌ إلى الدماء والخراب والدَّمار ، وما مضى من تاريخ الأمم والشعوب وصراعاتها شاهد ونذير ؛ فالجشع اليوم أعظم ، والمدى أوسع ، والوسائل أفظع وأفتك .

إن الإنسان يا بيدبا ؛ قد نما وتقدَّم في مسار العلم والمعرفـة والقدرة والتواصل الكوني ، وهو اليوم بعلمه ومعرفته وتواصله بطبيعته قادرٌ على تعلم الدروس والعبر من

تاريخ إنسانيته وتراثها ؛ ليعودَ إلى رشده ، ويهتدي إلى طريق سلام مسيرة حضارته وعمرانه ، وعلى كلٌ المخلصين والمصلحين والمفكرين يا بيدبا ؛ العمل الجاد بروح الفريق من أجل التقدم في هذا الطريق الصحيح ، والسعي إلى تحقيق هذا الهدف السامي النبيل ، قبل فوات الأوان .

يا بيدبا ؛ كُلِّي تفاؤلٌ وأملٌ في أن يعتدل الميزان ، ولن تسمح الفطرة التي فطر اللَّه الناس عليها أن تسود شريعة الغاب في عالم الإنسان ، ويسود الشر والظلم في الأرض ، وفي حضارة الإنسان ، ولابدَّ للفطرة بالحقِّ والعدل والرحمة والسلام أن تعود ، وأن تسود ، ولكن ذلك لن يكون إلا بأيدي الشباب المؤمنين العاملين المصلحين المتقين يا بيدبا ، وذلك آت ؛ حين يصحُّ العزم ، وتصحُّ العقيدة ، وتصحُّ الرؤية الحضارية الكونية ، نعم يا بيدبا ذلك آتٍ دون شك أو ريب ، وإن ذلك إذا اتضحت الرؤية قريبٌ بإذن اللَّه يا بيدبا .

عند هذا الحـدِّ توقف الشيخ عن الحديث ليرتشف جرعةً من الماء .

انتهز بيدبا الفرصة عند ذلك وقال مخاطبًا الشيخ الجليل ابن بطوطة : هل من أمرٍ آخر بعد هذا الحديث الهام الشيق يا سيدي ؟

قال الرحالة الجليل : هناك أمر آخر يا بيدبا أود أن أذكره لك ، وهذا الأمر هو الغاية من طول حديثي إليك وإلى إخوتك وأخواتك من طلاب العلم والإصلاح طوال هذه الأيام ، وذلك لما مرَّ بي من خبرة وتجربة أيها الحكيم الأديب بيدبا .

قال بيدبا : وما تلك الغاية أيها الشيخ الجليل ؛ فإنني لن آلو جهدًا في أن أحقق لك طلبها .

قال الشيخ ابن بطوطة : أنت تعلم يا بيدبا أنني ما أردت إلا الإصلاح ما استطعت ، ولا أريد - وقد قارب الأجل يا بيدبا ، وآذن بالرحيل من دار الطين والفناء إلى عالم الروح والبقاء - أن ينتهي العمر ، وأرحل عن هذه الدنيا ، لأبدأ - مثل كلِّ البشر - رحلة العودة إلى عالم الروح ، دون الأمل في مستقبل قريب أفضل ، وحياة قادمة على هذه الأرض أعز وأكرم ، للإنسان وللأمة ، وللقادم من الأجيال ، ودون الأمل في حضارة زاهرة أنقى وأرقى للإنسانية ؛ ولذلك تراني يا بيدبا قد حرصت خلال ما مضى من أيام أن أنقل إليكم لبَّ تأملاتي وخبرتي في الحياة ، وخلاصتها ، وهكذا ترى يا بيدبا أن الغاية من حديثي إليك وإلى إخوانك وأخواتك من طلاب العلم والإصلاح يا بيدبا ؛ هو ألا تكتفوا بسماع ما تحدثت به إليكم ، ولكن عليك وعلى إخوانك وأخواتك أن تنقلوا ما سمعتم من حديثٍ ، وما

نِلْتم من خبرةٍ إلى الصغار والكبار ، والشيوخ والشباب ، من أجيال المستقبل ؛ وأنت بخاصة يا بيدبا ، مقصود أكثر من سواك ؛ لأنك تجيد حَبْكَ الحديث والحكايات ؛ ولأن الصغار والشباب في حداثة سنهم اليافعة قد يصعب عليهم الإلمام بكل هذه الخبرات والتجارب والتأملات التي تطرقنا إليها ، وفي أغلب الأحوال فإن أيديهم وأعينهم قد لا تستطيع أن تصل إلى كثير من مصادرها ؛ لذلك فإن أسلوبك الحكيم في الحديث والحكاية والقصة والحوار يا بيدبا يُعَدُّ وسيلةً أسهل وأيسر في إيصال هذه الخبرة والتجربة ؛ لنفع هذه الأجيال ، وهو الأسلوب الذي أتطلع إليه لنقل ما دار بيننا من أحاديث إليهم ، ولتوفير الرؤية والخبرة الصالحة إلى نفوسهم ؛ وفي سنٍّ مبكرة ، قبل أن يصلب عودهم ؛ فتفيدهم في بناء فكرهم ووجدانهم ، وتنير رؤيتهم ، وتسدد جهودهم ومسيرتهم ؛ لتحقيق الغايات الخيِّرة من حياتهم ، ولينتفعوا بها قبل أن يغادروا الحياة ومواقع البناء والعطاء ، مثل ما كان مصير آباؤنا بالأمس ، وما سوف يحدث لنا نحن عما قريب ، وليقدموا كشفَ حساب وتقريرَ أعمال ذات قيمة ونفع معنى عن حياتهم وما بذلوا من جدٍّ واجتهاد في التسخير والإمتاع والتيسير على الناس والخلائق ، وفي فعل الخير وبناء الحضارة في الأرض ، كما شاء اللَّه بحكمته ورحمته لهم وأراد .

قال بيدبا : نعم أيها الشيخ الجليل ؛ لن أحتفظ وإخواني وأخواتي بما سمعنا منك لأنفسنا وحدنا ؛ لكننا سنقص ونحكي ما سمعنا منك على الناس ، كبيرهم وصغيرهم ، وعلى الصغار والشباب خاصة ؛ حتى ينتفعوا بما في توجيهاتك وآرائك من حكمة ورؤية وخبرة ؛ تعينهم على النجاح والفلاح بإذن اللَّه ، وتحقق الغايات السامية لأنفسهم ولأممهم ، وللوجود والمخلوقات من حولهم ، وذلك غاية ما تصبو إليه نفوسنا ونفسك أيضًا أيها الشيخ الجليل ، وترجوه .

تبسَّم الشيخ مسرورًا بما سمع ، وأمسك بعصاه ليقف مودعًا بيدبا وإخوانه من طلبة العلم ، ولكن فتاة جميلة من الحاضرات سبقته بالوقوف من خلف الصفوف ، وخاطبت الشيخ ابن بطوطة في حياء قائلةً : يا شيخنا الجليل : هل تسمح لي بكلمة ؟

نظر الشيخ إلى محياها الجميل وطلعتها البهية ، وقال : تكلَّمي يا ابنتي ، فكلي آذانٌ صاغيةٌ لكِ .

قالت الفتاة : أنتَ تعلم يا سيدي أعزك اللَّه وأعزك ، أننا أحببناك واستمتعنا بحديثك وحكمتك وخبرتك وكرمك ، وإنني أود أن أواصل الجلوس إليك ، والإفادة من صحبتك ، فهل تقبل بي زوجة لك أرافقك إلى بلدك ، وفي أسفارك ، وأعينك على أمورك ؛ فذلك أقل ما يستحقه منا رجلٌ مخلصٌ مجاهدٌ مثلك ؟

نظر إليها الحاضرون وتهامسوا وتضاحكوا وأومأوا برؤوسهم تأييدًا لقولها .

نظر الشيخ إليها مليًّا ، ورآها فتاةً تفوق البدر جمالًا ، وقال يخاطبها : أنتم تعلمون يا أبنائي ما أكنُّه لشباب العلم والإصلاح من المحبة والتقدير ، ولكنني كما تعلمون رجلُ ترحالٍ وسفرٍ لا يقر له قرار ، وله في أرض الوطن زوجة وبنات وأبناء وحفيدات وأحفاد ، وقد أخلصتُ العهد لزوجتي فأخلصتْ لي العهدَ ، وأَمِنَتْ جانبي ، وأَمِنْتُ جانبها ، وأصبح الإخلاصُ والأمنُ ما يربط بيننا ، وهو سرٌّ – إلى جانب الاحترام والتقدير المتبادل بين الأزواج وأفراد الأسرة – من أهم أسرار سعادة الأسرة واستقرارها ، فإن المرأة يا إخوتي إذا أَمِنَتْ حقًّا جانب زوجها ، بإحساس قلبها ومشاعرها وعطاء زوجها وتضحياته ، وأنه لن يتخلَّى عنها ، فإنها تَهَبُ زوجَها ، وتَهَبُ أبناءهما ، روحَها وخالصَ حرصها وولائها ، فلا يكون داخل الأسرة تربُّصٌ ، ولا تعدد في المصالح والحسابات .

وفي الجانب الآخر يا أخواتي ، فإن على الزوجة الحذَرَ من السماع إلى النصائح الحمقاء الضارة المؤدية إلى إثارة غيرة الزوج على زوجته ، فإن ذلك إسفينٌ يُدَقُّ في أصل بناء الأسرة وعلاقة الزوجية واستقرارها ، وإن إعطاء الأمن للزوجة من جانب الزوج ، وثقة الزوج بعفة الزوجة ، وصون

كرامتها وكرامة أبنائهما ، هما القاعدتان اللتان يقوم عليهما بناء الأسرة الصالحة السعيدة المستقرة التي يخوض بهما الزوجان دروب الحياة ؛ حلوها ومرَّها ، ظهرًا إلى ظهر ، وتيقنوا يا إخوتي أنه لا أسرة على وجه الحقيقة دون هاتين القاعدتين الأساسيتين ؛ وكل ما عدا ذلك من خلافات الزوجية ، يمكن للأزواج - ما حَكَمتْ علاقتهما آداب الاحترام والتقدير المتبادل يدًا ولسانًا - أن يصلا بالعقل والحكمة لما بينهما من أواصر متينة ومشاعر المودة والرحمة إلى إصلاحه وتلافي سلبياته والتعايش ، دون عظيم عناء ، مع الكثير منه .

لكل ذلك أيتها العزيزة ؛ ولأنني رجل قد تقدمت به السن ، واقترب ولاشكَّ منه الأجل ؛ فأنت تجدين أنني لست بالرجل الذي يليق زوجًا لفتاة جميلة مهذبة في مقتبل العمر مثلكِ ، ولكنني أستأذنك أن تقبلي بي أبًا ، وأن أخطبك لمن أظنه - بما رأيت في شخصه من مخايل الذكاء والقدرة ، وما رأيت لكِ في عينيه من مشاعر الود والمحبة - خيرَ زوجٍ وأبٍ لأبنائك ، وخيرَ إلفٍ لكِ في رحلة الحياة السعيدة ، إن شاء اللَّه .

أرخت الفتاة رأسها ، وغضَّت طرفها ، وقالت : إذا لم تأخذني معك فلن أجد خيرًا منك أبًا وناصحًا .

نظر الشيخ إلى شابٍّ حسن الطلعة والهندام ، كان

يجلس إلى يمين المجلس ، فطلب إليه أن يتقدَّم ويجلس إلى جانبه ، فأسرع الشاب ملبيًا الطلبَ ، ثم نظر الشيخ إلى شابٍّ آخر يضاهيه طلعةً وهندامًا ويقظة وذكاءً ، وطلب إليه أن يتقدَّم أيضًا ، وأن يجلس إلى جانب صاحبه ، فلبَّى الشاب في سرعةٍ وخجلٍ طلبَ الشيخ .

نظر الشيخ إليه ، ثم نظر إلى فتاة أخرى شابة جميلة تضاهي الأولى بهاءً وجمالًا ، وطلب إليها أن تجلس إلى جانبها ، ثم قال مخاطبًا الشاب : لم يفتني يا فتى ما كنت ترسلُهُ من النظرات الوالهة إلى فتاتك ، ولم يغب عن فطنتي نظرات حيائها وخجلها من اختلاسات نظراتك .

ثم التفت إلى ذلك الشاب ، وقال له : هل تأذن لي أيضًا يا بني أن أخطب لك في هذا المجلس فتاتك الجميلة هذه ؟ فما أظن شابين نابهين مثلكما تجدان خيرًا من فتاتيكما زوجتين صالحتين لكما ، وما أظنهما ستجدان خيرًا منكما زوجين صالحين لهما .

خفض الشباب رؤوسهم ونظراتهم إلى الأرض ، وقالوا له : أنتَ أيها الشيخ الجليل بمنزلة الأب لنا جميعًا ، وكلنا نرضى بما ترضاه لنا ، ولن يعصي أحدٌ منا لك أمرًا .

التفت الشيخ ابن بطوطة إلى بيدبا وقال له : سأبعث معك فتاي لتدبر أمر أفراح هذه الليلة وزواج هذين الشابين

من هاتين الفتاتين إن شاء اللَّه ، وسيكون العرس في داري ، وعلى نفقتي ، فأحضر معك « المأذون » ، وادعُ الأهلَ والأحباب وكلَّ من تشاء من أهل الجوار والحي ، وسأكون أنا وأنتَ شهودًا على هذا الزواج المبارك إن شاء اللَّه ، ولا تنس يا بيدبا أن تحضر أرباب الفرح والمرح والطرب والسمر لتكون بإذن اللَّه ليلةَ فرحٍ ومرحٍ نختم بها لقاءاتنا المباركة .

إنني يا بيدبا أريد أن أكافئ بأفراح هذه الليلة صبرَك وصبرَ إخوانك وأخواتك من عناء الحوار والفكر والدرس ، خلال الأيام والليالي الماضية ؛ حيث كنتم فيها خير المحاورين ، وخير المستمعين .

دسَّ الشيخ في يد بيدبا ورقةً ، كان قد أمضى سحابة ما بعد الظهيرة في تسطير أهزوجة غنائية فيها ، لكي يُزَفَّ على كلماتها العرسان ؛ تعبيرًا منه عن الفرحة والسرور بهذه المناسبة السعيدة ، تهدي أطيب التمنيات للعرسان ، وترجو لهم كل الخير والسعادة والرفاه .

قال الشيخ ابن بطوطة مخاطبًا بيدبا : خُذْ هذه الرقعة وما سطرته فيها يا بيدبا ، وادفع بها إلى واحدٍ من أقدر الملحنين في بلدتكم ؛ ليضع لها اللحن المناسب كي ينشدها الشباب والشابات في زفة العرسان ، ومن سيأتي بعدهم بإذن اللَّه .

قال بيدبا ضاحكًا : سأفعل ذلك أيها الشيخ ، وستسمع منها بإذن اللَّه أنشودة فرحٍ ومرحٍ تهزُّ عمامتك بها ، وتطرب أذنيك برائق لحنها وجميل كلماتها .

وفي المساء أقبل الأهل والأحباب والأصحاب وأبناء الحي شيبًا وشبانًا ، رجالًا ونساءً ، في أزهى حللِّهم الشعبية المحتشمة السابغة ، وبأجمل الألوان التي تتألق وتتأرجح على أرشق القامات وأجمل الوجوه ؛ كأنهم النجوم المتلألئة في السماء الزرقاء الصافية ، والتي تستدعي بها طلعات الشباب البهية في النفوس أسمَى الأحاسيس ، وأنبل العواطف الإنسانية في الألفة والأنس والمحبة التي تنزهت عن عروض مفاتن الجنس والجسد وسوءاته وعوراته ، والتي لا حاجة ولا ضرورة لها ، فهي في هذا المجتمع الراقي الأخلاقي المتحضر حقًّا هي من شأن الأسرة والزوجية ، وليست كلأً مباحًا ، ولا عروضًا ودعواتٍ حيوانية تستدعيها مفاتن الجسد العاري بقصدٍ أو بغير قصدٍ تستثير لواعج وتطلعات كل من هبَّ ودبَّ ، وتتسع بها ، دون حاجة أو ضرورة خروقُ الانحرافات ، وانفلات النوازع والشهوات وتأججها ، ولذلك فأنت في مثل هذا المجتمع الراقي ، لا ترى من النساء والفتيات – في ملابسهنَّ السابغة المحتشمة الجملية – إلا وجوههنَّ الوضَّاءة وأيديهنَّ ؛ لأن يد الإنسان أداة تصرفه ؛ ولأن وجه الإنسان هو شخصيته

وإرادته وحقه المقدَّس والذي لا يصح طمسه وحجبه والعدوان عليه ؛ لأن في ذلك إهانةً لإنسانيته وإلغاءً لإرادته ، أما السجن والحجب فيجب أن يكون من نصيب المعتدي المنحرف ، لا الضحية البريئة .

بهذه الحلل الجميلة والخطوات الفرحة الرشيقة انتشرت جموع الشباب في فرح ومرح استعدادًا للإنشاد والغناء بأجمل الأغاني وأعذب الألحان ، وملؤوا الساحة الواسعة الممتدة أمام الدار ، واصطفوا في الساحة صفوفًا متقابلة من الفتيان والفتيات لأداء رقصاتهم الشعبية فيما تشبه ما يعرفه أهل بلاد الشام برقصة « الدبكة » التي تتميز بحس الأنفة والكرامة ومعاني الإباء والشجاعة بكل المرح والخفة والرشاقة .

وأخذوا في الدبك والرقص ، تقترب صفوفهم وتبتعد على وقع الألحان ، ثم تلتف دوائر من الفتيان ، ودوائر من الفتيات ، متواليــة متتالية ، لتنفرج في صفوف متوالية ، ثم تتحول من جديد إلى دوائر من الفتيان ودوائر من الفتيات ، متوالية متتالية ومتباعدة لتراعي قواعد الاحتشام وتوفر في ذات الوقت فسحة حرية الحركة ورشاقتها ، الواحدة تحيط بالأخرى ، ثم تنفرط الدوائر في دائرة كبرى ، في جانب منها الفتيان ، وفي الجانب الآخر منها الفتيات ؛ لتنفرط من جديدٍ في صفين متقابلين : صفٌ من الشباب ، وصفٌ من الشابات ، وهكذا دواليك في غناء وطرب وفرح ونشوة

شابة بريئة ، حتى منتصف الليل حين أقبل أرباب الدفوف يتقدمون العرسان الذين بَدُوا على أتم ما يكونون من التألق والجمال ، فهم كالأقمار في ليلة التمّ بهاءً وجمالًا وحياءً ، والفرحةُ الغامرةُ تشع من أعينهم ، وتفيض بها وجناتهم .

اصطف الجميع والشباب والشابات في صفين ، وأخذوا ينشدون في استقبال العرسان الأنشودة التراثيـة في الترحيب بمقدم المصطفى عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم حين قدم إلى المدينـة المنورة لينبلج فجر الإسلام وتسطع شمسه في سماء البشريـة ، من باب التعبير عن الحبِّ للرسول ﷺ ، والتيمُّن بتلك المناسبة السعيدة :

طلـع البـدر عليـنا مـن ثنيات الـوداع
وجب الشـكر علينا ما دعـا اللّه داع
أيـها المبعـوث فينـا جئـت بالأمـر المطاع

وما إن استقر المقام بالعرسان على أرائكهم حتى تقدم أصحاب الدفوف ، وتقدم المنشدون ، ووقفوا وسطَ الصفوف أمام مجلس العرسان ، وأخذوا في الترنم والهزج في خطوات فرحة راقصة بأنشودة الشيخ ابن بطوطـة الذي جلس هو وبيدبا مع خاصـة أهل العرسان يحيطون بهم .

تقول أنشودة الشيخ الجليل تعبيرًا عن فرحـته وفرحـة الأهل والأحباب بالمناسبـة السعيدة :

يا أهل هذا الحي
يا أهل هذي الدار
صلوا على المختار
وصحبه الأخيار
صلوا

* * *

يا أهل حارتنا
يا أهل حِتِّتِنا
الليلة ليلتنا
الليلة فرحتنا
بأجمل العرسان
وأنبل العرسان في كل بلدتنا

* * *

يا أهل هذا الحي
يا أهل هذي الدار
وأهل حارتنا
وأهل حتِّتنا
غنوا لهم غنوا
بأجمل الألحان
وأجمل الأشعار

obeikandi.com

غنوا لهم غنوا
وأطربوا السمار

* * *

يا كلَّ أحبابنا
يا كلَّ أصحابنا
دقوا طبول الفرح
في فرحة الأحباب
قلوبنا نشوة وفرح
في ليل فرحتنا
بزينة العرسان في كل بلدتنا

* * *

يا نسمة النوار
وغنوة الأطيار
في ليلة الأفراح
هنوا حبايبنا
وغنوا لحبايبنا
وجَمْعَة حبايبنا

* * *

يا أهل بلدتنا

obeikandl.com

وكـل أحـبـابـنـا
بـالحبّ والأشـعـار
والـورد والأزهـار
حيـوا حبـايـبـنـا
وهنـوا حبـايـبـنـا

* * *

يـا أهـل حـارتـنـا
وأهـل حـتّـتـنـا
شـوفـوا حبـايـبنا
نالـوا المنـى نالـوا
نـالوا الـهـنـا نـالـوا
وفـرّحـوا الأحـبـاب
هـنـوا حبـايـبنا
وغـنـوا لحبـايـبنا

* * *

دقـوا طبـول الفـرح
غنـوا أغـاني الفـرح
في فـرحـة الأحـبـاب
في لـيـل فـرحـتنا
غـنـوا لحبـايـبنا

obeikandl.com

وهـنـوا حـبـايـبنا

* * *

يـا رب تحـمـيـهـم
يـا رب تـسـعـدهـم
تـسـعـد لـيـالـيـهـم
ما حطّ طير وطار
وطـلـعـت الأزهـار
وغـنـت الأطـيـار
وطل نور الضحى
وهـلـلـت الأقـمـار
في كل أرض وسما
في كل ليل ونهار
غـنـوا لحـبـايـبـنـا
وهـنـوا حـبـايـبنا
وادعـوا لحـبـايـبنا

* * *

يا أهل كـلّ الحي
وكـل أحـبـابـنـا
صلوا على المختار
وصـحـبـه الأخـيـار

وصحبه الأطهار

* * *

ما ذر قرن الشمس
وطل نور الفجر
يفتّح الأزهار
ويزهر النوار
صلوا على المختار
يا أهل بلدتنا
صلوا عليه صلوا
صلوا

* * *

عند ذلك قال الجميع
بصوت واحدٍ :
اللّهم صلِّ وسلم وبارك عليه

* * *

ومع انتهاء الأنشودة قام العرسان يتبعهم الشيخ ابن بطوطة وبيدبا ، ولاسيما الأهل وكافة المدعوين إلى موائد الطعام الشهي الذي أبدع بيدبا في حسن اختياره لتكون حقًّا ليلة فرح ومرح لكافة الأحباب والأصحاب .

يقول بيدبا : لقد كانت ليلة لا ينساها أحدٌ ممن حضرها ، وقد ضاعفتْ مسراتِنا ، وضاعفتْ حبَّنا للشيخ الجليل ، وجعلتْ رحيلَه ووداعَه أشدَّ وقعًا على النفوس وألمًا للقلوب ، ولكنها أبقتْ له في نفوسنا أطيبَ ما يستحقُّ من ذكرى الحبِّ والإعزاز .

يقول بيدبا : بهذا انتهت قصتنا مع الشيخ الرحالة الحكيم ابن بطوطة ، وإنني أرجو بما بذلت من الجهد في كتابتها وحكايتها أن أكون قد وفيت بوعدي للشيخ الجليل ، وأن أكون قد يسَّرتُ بها أمرَ الإفادة من علمه وحكمته وتجربته لكلِّ مَنْ يقرؤها من أبناء الأجيال المقبلة من بعدنا ؛ لتكون عونًا لهم في وضوح الرؤية التي تعينهم على فهم معنى حياتهم ، وبلوغ غايتها الخيِّرة بالجد والإبداع ؛ في سبيل الإصلاح والفلاح ، والأمن والسلام ، وبناء ما أمر اللَّه به لخير البشر من جمالات الحضارة والعمران ، ومنافعها ومتعها الطيبة الفطرية الحلال ، بإذن اللَّه .

١٠
شراع الرحالة يقصد الجنوب

حانت لحظة الرحيل ، وكانت الريح ساكنة ، والأفق شاحبًا ، وقرص عين الشمس محمرًّا ، وقد وقف المودِّعون

يلقون النظرة الأخيرة إلى الشيخ الجليل ، ويلوِّحون له بأيديهم وداعًا لطلعته الجليلة وهو يمتطي مركب الرحيل ؛ حيث يحمله الموج ، ويبعده الشراع ، إلى عمق الأفق الحزين ، وقد ودع منهم الأحبابَ على أمل لقاء مَنْ سلف من الأحباب ، وليس مَن أمل في العودة واللقاء .

وهكذا أيها القارئ العزيز ؛ فقد ودَّع الشيخ أصحابه إلى أرض الجنوب وكلهم حبٌّ له ، وحزنٌ على فراقه .

ومن المهم في نهاية هذه القصة المليئة بالحكم والعبر من رؤوس خطها الشيبُ ، وطال بها السفر والسهر ، أن تعلم أيها القارئ العزيز أننا بعد أن زرنا جزيرة البنائين وشاهدنا بأم أعيننا واديهم الأخضر الجميل ؛ فقد وجدنا صدق ما حدثنا به الشيخ الجليل الرحالة ابن بطوطة عن أبناء جزيرة البنائين ، ووواديهم الجميل ، ومواطنيهم المؤمنين المخلصين ؛ بسمو غايتهم ، ووضوح رؤيتهم ، وسلامة منهج فكرهم وبناء وجدانهم ، وإبداع أدائهم ، وإخلاصهم في عملهم - أنهم قد تمكنوا فعلًا من إعمار بلادهم وتسخير مواردها وتجلية روعتها وجمالها ، فنظموا مجتمعهم ، وأقاموا سلطاتهم الست ، ونظمُّوا دولتهم وحكومتهم ، وتمكَّنوا من طرد أعدائهم ؛ ليعيشوا في حبٍّ وتعاون ، ورغد ونمو وأمن وسلام ، وكما تقول الأمثال الحكيمة (من جَدَّ وجَدَ) ، و(من زَرَعَ حَصَدَ) ، و(من سَارَ على الدربِ وَصَلَ) .

بهذه النهاية السعيدة انتهت أيها الأعزاء قصة الحكيم بيدبا عن جزيرة البنائين ، وما كان من حال أهلها ، وكيف - بالتعاون والتآزر والتكافل والتشاور والإخلاص - غيَّروا حالهم السيِّئ إلى أحسن حال ، هذا كل ما وُجِدَ مدونًا بكل الدقة والعناية ، في القصة المفقودة ، من روايات كتابنا القصصي التراثي الشهير « كليلة ودمنة » ، فعسى أيها القارئ العزيز أن نستفيد نحن أيضًا مما جاء فيها ، كما هي غاية من كتبها من نصح وحكمة وتبصير ، لفهم معنى حياتنا ، وبناء نظامنا ، وحماية أمننا وبلادنا ، وتسخير مواردنا لسد حاجاتنا ، وصيانة كرامتنا ، وإعمار عالمنا ، وحق علينا أن نعبر لفيلسوفنا العزيز بيدبا وللشيخ الجليل الرحالة ابن بطوطة عن كل شكر وتقدير على ما أسدياه لنا من التوضيح والنصح ، والتبصير والتحذير .

وإذا تصورنا أيها القارئ العزيز ، أنك إن شاء اللَّه ، حين تفكر في السياحة شرقًا وغربًا ، وشمالًا وجنوبًا ، وتذهب إلى ذلك البحر المحيط ؛ لتصل إلى الأفق الواسع ، خلف خط الشفق الأحمر ، عند مطلع القمر ، وتنزل في تلك الجزيرة الوادعة الجميلة ؛ فإنك ولا شك ، سوف تقضي أيامًا طيبة ، في ذلك الوادي الأخضر البديع ، عند سكانه الأقوياء العاملين الطيبين السَّلامِيين ، وسوف تستمتع معهم ، بكل الطيبات الشهية اللذيذة ، دون أن يُعكِّر صفوَك أحدٌ

من الكواسر الفتاكة الشريرة ، وتعود من بلادهم الجميلة ، بإذن اللَّه بكثيرٍ من الهدايا والتحف الرائعة المتقنة .

أيها القارئ العزيز ؛ في نهاية القصة ، وبعد أن استمتعت بها وبما فيها من حكم الفيلسوف بيدبا والشيخ الرَّحالة الحكيم ابن بطوطة ، نتمنى لك مستقبلًا سعيدًا ، وحياة مبدعة منتجة ، ومجتمعًا عاملًا متكافلًا متحدًا متآزرًا ، وأمةً إسلاميةً عزيزةً قادرة بإذن اللَّه .

(١) الملحق التوضيحي الأول :

المفهوم القرآني : ﴿ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ﴾

قدَّم القرآن الكريم الكثير من المفاهيم التي يجب أن تقوم عليها الأنظمة والمؤسسات الاجتماعية هدايةً للبشرية ، وترك لهم أمر أسلوب تحقيقها ، ووسائلها المتغيرة المتطورة ، على ما يقتضيه تطور أحوال الزمان والمكان ، في اتساع سقف العلم والمعرفة والتقدم الحضاري الإنساني ، وما يلحق ذلك من تغيُّرات وتطورات وإمكانات وتحديات .

ومن أبرز المفاهيم التي تنبه لها مفكرو الأمة منذ أمد ليس بالبعيد ، كمؤسسة سياسية اجتماعية هامة أُهمل شأنها ، ولم تنشأ على وجه الحقيقة في الماضي ، وتلك المؤسسة هي مؤسسة التي تجسد « مفهومُ الشورى » .

ولذلك نحن نلفت النظر إلى أهمية إعادة قراءة القرآن

الكريم للتنبه إلى العديد من المفاهيم الأخرى التي جاء بها القرآن الكريم واللازمة لبناء النظام الاجتماعي الإسلامي المعاصر ، وبشكل فعال سليم ، والتي لم يتنبه لها المفكرون المسلمون ، بالشكل المناسب ، حتى اليوم ؛ والسبب في ذلك ، إلى حدٍّ كبير ، تعدد أدوار الرسول ﷺ ، بوصفه رسولًا مبلغًا موحًى إليه ، وبكونه داعيةً ومعلمًا ، وكونه رئيسَ دولةٍ ، وبانيَ مجتمعٍ ، وهي الأدوار التي كان يجب أن يفصلها المسلمون بعضَها عن بعضٍ بعد وفاة الرسول ﷺ ، فدور النبوة وبلاغ الرسالة انتهى بوفاة الرسول ﷺ ؛ ولكن الصوفية والشيعة عملوا على استمرار هذا الدور في كرامات المشايخ والأولياء والمعصومين وإلهاماتهم وتواصلاتهم ؛ أما دور الرسول صلى اللّٰه عليه داعيةً ومعلمًا فكان يجب أن يفصل عن دور رئيس الحكومة وبرامجه وبرامج حكوماته السياسية ومن يمثلهم بالضرورة من القوى والمصالح ، وذلك حتى لا يوظَّف الدينُ والقدسيةُ في خدمة المصالح السياسية ، والتي سوف تنتهي ولا شك ، وكما أثبت تاريخ الأمة إلى توظيف الدين سياسيًّا ، وتمكين حكم الاستبداد ، لأن البشر بفطرتهم .... وليس لهم عصمة الأنبياء .

إن استقلال دور التعليم والدعوة ، وإسنادها إلى الأمة ، وتمكين دورها المستقل في بناء شخصية المسلم ووجدانه ،

فإن ذلك هو الذي يدعم الوعي ، ويمكّن دورَ الدينِ والقيم ، ويحمي حقوق الأمة ، ويجعل من الأمة المسلمة وصيًّا على الحكام ، وموجِّهًا لأدائهم وبرامجهم السياسية .

وهنا نلحظ أن الثبات النسبي لطبيعة العصر لأمد طويل ، بعد وفاة الرسول ﷺ قد صرف أنظار العلماء والمفكرين ، عمليًّا ، وبسبب ما أصابهم من الضعف الفكري بسبب ما فرض عليهم من العزلة عن الحياة العامة للأمة إلى ترتيبات السنة النبويـة المشرفـة الزمانية المكانية في مجملها والتمرس خلفها ، أكثر منه إلى استلهام القرآن الكريم بمفاهيمه وأبعاده اللازمانية واللامكانية لمواكبة متغيرات الزمان والمكان في الترتيبات التطبيقية المحققة لمقاصد الشريعة .

ومن هذا المنطلق نود أن نلفت النظر إلى آيتين كريمتين ، تتعلقان بمفهوم الدعوة والتعليم الديني ، كمؤسسة اجتماعية تربوية هامة ، كان يجب على الأمة إقامتها مؤسسةً مستقلةً ، وتكون لها جميع ضمانات الاستقلال ، على قدم المساواة مع مؤسسة الدستور ، ومؤسسة الشورى ، ومؤسسة القضاء ، ومع بقية مؤسسات النظام الاجتماعي الأساسية ، حتى تبقى على غرارهم ، وشاكلتهم ، مؤسسةً مستقلةً تؤدي دورها البنّاء الفعّال في الدعوة والتربية والتعليم الديني والقيمي ؛ بعيدًا عن آفة التشويه والتهميش ، أيًّا كان نوعه ، بالإلغاء ، وبتحويل مفهوم الدين والدعوة والتعليم القيمي

إلى مجرد شعارات فارغة جوفاء ، وإقامة الحفلات والموالد ، واستصدار فتاوى الدعم والتأييد لأصحاب السلطان ، ومعاركهم السياسية ، أو بالاستغلال والتشويه ؛ وذلك بتوظيف الدين والقداسة من قِبَلِ رجال السياسة والسلطة والمصالح الخاصة ؛ باستخدام قداسة الدين وسيلةً لإشاعة الخوف والرعب ، وتكميم الأفواه ، وإلغاء العقول ؛ خدمةً للسلطة وسياساتها ومصالحها الخاصة .

أما الآيتان أو المفهومان القرآنيان فهما قول اللَّه سبحانه وتعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٢] ، وكلمة (الأمة) هنا تعنى فئة أو جماعة أو هيئة أو مؤسسة مستقلة ، تختار الأمة قيادتها لتكون مؤسسة لا تراعي إلَّا مهمتها ، والوظيفة المنوطة بها ، دون سلطة ولا تأثير من أي مصالح أو اعتبارات ، إلَّا من ثقة الأمة بها ، ودعمها لها ، والاقتناع بأدائها ، وبرقابة منها .

كما نود أن نلفت النظر أيضًا إلى أن هناك مفاهيم قرآنية أخرى عديدة عدا هذين المفهومين يجب التنبه لها ، وسوف تكون موضع دراسة أخرى فيما بعد إن شاء اللَّه ، وما يهمنا

هنا الآن هو الإشارة إلى مفهومين آخرين في القرآن الكريم يجب أن يكونا موضع مزيد من البحث العلمي ، والاهتمام ؛ ليكونا أساس بناء قوانين الأسرة وتطبيقاتها المعاصرة ، وذلك في ضوء تطور الواقع والإمكانات والحاجات والتحديات ، وأن يعاد النظر في أمر أي تطبيقات تراثية لا تحقق - لتغير الظروف والحاجات والإمكانات والتحديات - هذه المفاهيم القرآنية والغاية منها ؛ فإنها يجب تعديلها ؛ حتى يتم - بشكل حقيقي وفعَّال - تحقيق هذه المفاهيم وأهدافها ومقاصدها والغاية منها ، في علاقات الأسرة والمحافظة عليها .

وهذان المفهومان القرآنيان هما : « إمساك بمعروف » أو « تسريح بإحسان » ، يقول اللَّه سبحانه وتعالى : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ [الطلاق : ٢] ، ويقول سبحانه : ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ [البقرة : ٢٢٩] .

وبرغم أن علماء السلف قد تنبهوا إلى مفهوم تعدد الأدوار التي أداها الرسول ﷺ في حياته في العهد النبوي ، وبالذات إلى دور الرسالة والتبليغ ، ودور الدعوة ، ودور الحكم ، ولكن نظرًا للظروف المتسارعة ، والموروثات المتجذرة ، والمصالح الطاغية ، وما ألمَّ بالنظام الاجتماعي على العهد الأول من كوارث انهيار نظام الخلافة الراشدة ،

وسيطرة مفاهيم النظام القبلي ، وما تبع ذلك من ثقافات البلدان والأمم التي دخلت الإسلام ، وطغيان رجال السلطة ، ومصالحهم ومصالح أعوانهم ، إلى جانب عزل رجال مدرسة المدينة والعلماء ، وعزل مفاهيم الدين ومقاصده عن الحياة السياسية ، هذا من ناحية ، ولعدم تغير طبيعة العصر بشكل جذري لأمد طويل ، من ناحية أخرى ، فإن ذلك كله قد أسهم في محدودية فكر العلماء والمفكرين ، وجعلهم يميلون إلى التقليد والمحاكاة والاعتماد على التطبيقات التشريعية للعهد النبوي ، التي خاطبت أحوال المجتمع ، على العهد النبوي ، ويلتزمون حرفها ، أكثر من اعتمادهم على المفاهيم التشريعية القرآنية ، ودلالاتها ومقاصدها ، اللازمانية واللامكانية ، وتطوير تطبيقاتها ؛ بما يلائم جوهر المتغيرات ومقاصدها وآثارها الاجتماعية ، وعُرفت هذه الظاهرة في الفكر الإسلامي بظاهرة التقليد وقفل باب الاجتهاد ، وبالتالي فقد اتسمت بالضرورة بالمبالغة في تصيد النصوص النبوية والتراثية والتستر خلف قدسيتها .

ويهمنا هنا أن نشير إلى أن نجاح عهد الخليفتين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، وصدر عهد الخليفة عثمان ، على الرغم من عدم فصل دور الدعوة والتربية والتعليم عن دور السلطة والحكم ، هو أن هذه العهود بقيت فيها ترتيبات الحكم ورجاله وأدوارهم على ما كان عليه الأمر في العهد

النبوي . ولكن مع موت كثير من الرجال واستشهادهم ، وضعف جلهم ، وتقدم سنهم ، ومع تغير أحوال الناس والعصر بعد اتساع الدولة ، وامتداد الفتوح ، ودخول شعوب كثيرة في الدولة والإسلام فكان لابد من التغيرات في الأشخاص والأدوار هنا كان لابد أن تظهر بعض الآثار السلبية فيما رأينا من حال الدولة والحكم ، وما دار من صراعات انتهت بانتهاء عهد الخلافة الراشدة ، وتمكن القبلية والشعوبية والاستبداد والملك العضوض .

وفي هذا الزمن ، المتباعد جذريًّا في كثير من الوجوه ، عما كانت عليه أوضاع الإنسانية في القرون السالفة خاصة مع تنامي الهجمة الفكرية الغربية ، بفضائياتها وعنكبوتياتها ونفوذها العلمي والتكنولوجي والاقتصادي والسياسي ، وتأثيرها السلبي في الأمة ، وفي شبابها ؛ كل ذلك يؤكد الحاجةَ إلى مراجعات مقولات الفكر الإسلامي عامة ، والسياسي منه خاصة ، وإلى حال مناهج الأمة الحياتية ، وما يتعلق بها من التشريعات التراثية ، وذلك بالعودة إلى منطلق المفاهيم القرآنية ، ومقاصدها ، لتواكب تطورات الحضارة الإنسانية وإمكاناتها وتحدياتها ؛ بحيث تحدد الثوابت الإسلامية ، وتوضح مقاصدها ، ويجدد خطابها ؛ حتى لا تخلط الثوابت الإسلامية بغير الثوابت ؛ وذلك طلبًا لتحقيق غايات الهداية القرآنية ومقاصدها على تعاقب

الأماكن والأزمان ، واختلافها .

وفي هذا الصدد فإن من المهم أن ندرك أن مؤسسات التربية الدينية والدعوة والتبشير للأديان الإبراهيمية السالفة ، التي هي المعبد والكنيسة ، كان من الممكن أن يكون تأثيرها وعطاؤها مضاعفًا وأعظم فاعلية ، لولا طبيعة هذه الأديان الزمانية المكانية ولما أصاب هذه الأديان لاحقًا من انحرافات وتحريفات وخرافات ، والتي ما جاء الإسلام إلَّا ليصححها ، ولمواكبة حال الإنسانية في مستقبل عصر العالمية وتحديداتها من بعد .

والإسلام باعتباره الرسالة الإلهية الخاتمة ، المهيمنة ، على ما سبق من الأديان ، خاصةً وأن اللَّه قد حفظ القرآن الكريم ، وهو المصدر الأساس والأول لهذا الدين ، كما حفظت جهود العلماء الكثير من صحيح السنة النبوية : روايةً ومتنًا من داء التحريف والخرافة والشعوذة ؛ كل ذلك يجعل بناء مؤسسات الدعوة والتربية الدينية والدعوة الإسلامية المستقلة ، وفصلها عن مؤسسة السلطة والحكم ، ضرورةً قصوى ، وعنصرًا مهمًّا في القضاء على الفساد والاستبداد ؛ ولإنهاض الأمة وإصلاح رؤيتها وفكرها ومناهج تربية أبنائها بعيدًا عن أية مؤثرات خاصة أو سلبية ، كما يجب أن يكون المسجد قلب مؤسسة الدعوة ، وأن تكون مناهج الدعوة والتعليم والتربية الدينية الاجتماعية ، مما تختص به مؤسسة

الدعوة والتعليم العقدي وحدها ، والتي يجب ألا يكون للسلطة التنفيذية في الدولة أي تحكُّم فيها ، أوسلطة عليها ؛ وبحيث لا تكون هناك رقابة على هذه المؤسسات العامة منها والخاصة ، ولا على وسائلها ونشاطاتها ، إلَّا رقابة الأمة وممثليها المؤهلين المنتخبين لهذا الغرض وحده ، وعند ذلك يمكن أن تصفو الرؤية ، ويستقيم الفكر ويقضى على الاستبداد والفساد ، ويستقيم بناء مؤسسات الحكم والحياة العامة في البلاد الإسلامية ، وبذلك تصبح الأمة هي الوحي وصاحب الأمر والتوجيه لسلطات الدولة وليس رجال الحكمة ومصالحهم وسياساتهم .

لقد انقلب حال نظام الأمة رأسًا على عقب حين اعتبرت الأمة المسلمة هي « الذين لا يعلمون والذين لا يفقهون » وأصبح رجال الحكم والسلطة وموظفوهم من أصحاب الإجازات والألقاب هم « الذين يعلمون ويفقهون » وأصبحت الأمة هي القاصر والحكام وأصحاب المصالح وموظفوهم هم الأوصياء « الراشدون » « العالمون » وإذا كان هناك حاجة إلى مزيد من الوعي لأبناء الأمة فيكون بالتربية والتعليم وليس بالوصاية والتجهيل .

وملحوظة أخيرة ، وهي أن من المهم ألا يستمر خلط الفكر الإسلامي السياسي بشأنها ، والتي تتعلق بعلاقة سلطة الحكم (السلطة التنفيذية) بالدين والدعوة والتعليم الديني ،

وهل يُعَدُّ كفُّ يدِ السلطةِ ومصالحها عن السيطرة على دور الدين والدعوة والتعليم والتربية الدينية ، في الدولة والمجتمع ، أمرًا إيجابيًّا أم سلبيًّا ؟ وهل هو فصلٌ للدين عن الدولة ؟ أم هو كفٌّ ليد السلطة عن تشويه الدين بالتهميش أو بالتوظيف والاستغلال لخدمة مصالح الحكم والحكام وأصحاب المصالح الخاصة ، فهذه قضية اختلط فيها الأمر على الكثيرين ؛ ولذلك فإن من المهم أن ندرك أن فصل الدعوة والتعليم والتربية الدينية عن السلطة التنفيذية ، وعن برامجها الحياتية السياسية ، وعن المصالح التي تمثلها وتنحاز إليها ، ليس فصلًا للدين عن الدولة ، ولكنه خدمةٌ للأمة والدولة ، وحفظٌ للدين والعقائد والقداسة عن التهميش أو التوظيف لخدمة السلطة ورجالها والمصالح والفئات التي تنحاز إليها ، فسلطة الحكم ليست هي الدولة ، بل إن الأمة والشعب هو الأساس والأهم في تكوين الدولة ، وتستمد من خيارهم شرعية الحكام ، فالأمر هو أن يجعل أمر الدعوة والتربية في يد الأمة لتكوين كوادرها ، وتربية أبنائها ، على الوجه الصحيح ، بعيدًا عن مؤثرات المصالح الخاصة .

فالأمر هو إسناد الدين والقيم والدعوة والتربية والتعليم الديني إلى الأمة ؛ لكي تعدَّ أبناءها لأداء أدوارهم ، وإصلاح مؤسسات حياتهم العامة ، بما في ذلكَ مؤسسة الحكم

والسلطة ، وفق أولوياتهم المبنية على مفاهيم الدين ومبادئه وقيمه السامية التي دعوها وربوا عليها .

إن تعليم الدين والعقائد والأخلاق ، حتى تكون خالصةً من الشوائب والمآرب ، هو أفضل السبل لخدمة الدين والعقائد والقيم في المجتمع والدولة ، وأهم خطوة لبناء قاعدة الوعي السياسي والاجتماعي الإسلامي السليم ، الذي يرشِّد خيارات المواطنين بشأن التشريعات والبرامج السياسية ، ويوعيهم بشكل توافقي إلى تحقيق مقاصد الدين ، وإعلاء شأن القيم والأخلاق في المجتمع ، والالتزام إيمانًا وقناعة بها .

وهذا يعني باختصار أن فصل الدين والقداسة عن السلطة التنفيذية هو حماية للدين والقداسة من التهميش والتشويه والاستغلال ، وتحقيق مقاصدها ، وإعلاء مكانتها في الدولة والمجتمع ، أي إن فصل الدين والقداسة عن السلطة التنفيذية ليس فصلًا لهما عن الدولة ، بل هو قوةٌ وتمكينٌ لهما في الدولة والمجتمع .

الخلاصة هي أن نظام الأمة والشعوب الإسلامية المعبر عن مفاهيمها ومقاصدها الإسلامية هو أنها أمة إسلامية ذات دولة مدنية إسلامية وحكومة مدنية ونظام مدني إسلامي ، والإسلامية هي محتوى الأمة ، والمدنية هي الاجتماعية الإنسانية التوافقية ، فالأمة إسلامية بهوية مواطنيها المسلمين وتربيتهم وقيمهم ومفاهيمهم ومقاصدهم وخياراتهم

وأولوياتهم ودولتهما هي دولة ذات محتوى ومفاهيم ومقاصد إسلامية في نظام توافقي إنساني يرعى مصالح وهويات وخيارات وأولويات كافة فئات المجتمع - المسلم منها وغير المسلم - في الإطار الدستوري المدني التنظيم الإسلامي الإنساني المحتوى ، والإنساني يعني المعبر عن القيم والحقوق الإنسانية الأخلاقية الأساسية التي يشترك في احترامها والمتوافق عليها بنو الإنسان بفطرتهم وأسس أديانهم وعقائدهم ومواريثهم الأخرقية الاجتماعية وهي حكومة مدنية ، أي تستند إلى إرادة الشعب بكل فئاته وقيمهم وخياراتهم وفي مقدمتها إرادة الفئة المسلمة في الدولة وقيمها وخياراتها وأولوياتها النابعة من هويتها وقيمها وأولوياتها وتربيتها الإسلامية .

وهو نظام مدني إسلامي ؛ لأن محتواه يستند إلى إرادة الشعب الذي تمثل الهوية والقيم والمقاصد والخيارات والأولويات للمسلمين فيه ركيزة أساسية ترعى هذه الخيارات والأولويات دون أن تفتأت على الفئات غير المسلمة في الدولة وهو نظام مدني ؛ لأنه توافقي يمثل كافة الهويات ويرعاها على أساس المباديء والقيم والتنظيمات التي ينص عليها الدستور المدني التوافقي ويستند إلى الإرادة الشعبية التي هي الوصي على الحكومة والنظام وليس العكس . وهكذا فإنه لا تعارض بين مدنية النظام وإسلامية

الأمة ولا تعارض بين مدنية الحكومة وإسلامية الدولة .

ولكن المحصلة في هذه الدولة هو حرية العقيدة وسلامة المنطلقات والتربية والخيارات ووصاية الأمة على الحاكم والسلطة ؛ لتكون المنفذ المؤتمن والحارس المخلص لمصالح الأمة والمجتمع بكافة فئاته الممثلة لحقيقة خياراته .

ولذلك فإن الحكومة المدنية في بلاد الأمة الإسلامية ودولها إنما تعبر عن إرادة الشعب وخياراته وهي وكيلة عنه وليست معبرة عن الإرادة الإلهية بأفواه موظفين من أصحاب الإجازات والألقاب تفرض السلطة على الأمة والشعب بواسطتهم إرادتها كسلطة ومصالح ومراكز نفوذ ؛ لأنه لا سلطة في بلاد الأمة الإسلامية ودولها ولا شرعية للحكومات والسلطات إلا للسلطة والشرعية المستمدة من الأمة والشعب بكل فئاته ، وليس لأي سلطة أن تبقى وأن تحكم إلَّا برضا كل الأمة والشعب وخيارهم.

بغير هذا لا تكون شرعية ولا تكون طاعة وحيث إنه لا مجال لعنف في الصراع السياسي في المجتمع المسلم والدولة المسلمة فإن من حق الأمة والشعب – عند الضرورة – ممارسة الرفض والعصيان والمقاومة المدينة ، للإصلاح ولاستعادة السلطة والشرعية « فأفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» « ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » .

وهكذا فإن الأمة الإسلامية هي تربية ودعوة وتعليم إسلامي وهي دولة ودستور وحكومة مدنية إسلامية ، أي أنها إسلامية المحتوى والهوية ، ومدنية التوافق والتنظيم ، لا مجال فيها للفصل بين الأمة – تربية ودعوة – بين الدين والمباديء والقيم والسياسة .

وهي بذلك ليست أمة أو دولة أو حكومة علمانية ليبرالية الدين فيها مغيب ، ولا هي أمة أو دولة أو حكومة ماركسية ملحدة تحارب الدين ، ولا هي أمة أو دولة أو حكومة الدين فيها مهمش للأعياد والموالد وتشييع الأموات ، وهي ليست دولة أو حكومة دينية كهنوتية مستبدة توظف الدين لمصلحة الخاصة ، بل هي أمة إسلامية ، وهي في ذات الوقت دولة وحكومة مدنية إسلامية تعلي بوعي الأمة وخياراتها واملاءاتها من شأن الدين وشأن القيم ، وتحمي العقائد والحريات وتقييم العدل بين الناس.

(٢) الملحق التوضيحي الثاني :

مفهوم القانون : إقليمية القانون ، وشخصية القانون :

كما يعلم القارئ فإن القانون على نوعين : قانون الدولة أو الإقليم (إقليمية القانون) (State law) ، وشخصية القانون (Personal law) .

وقانون الدولـة أو الإقليم (إقليمية القانون) هو قانونٌ أوربيٌّ نتج عن تطور المجتمع الأوروبي وما ثار فيه من صراعاتٍ دينيـةٍ ، وخاصـة بين الكاثوليك التقليديين والإصلاحيين البروتستانت ، وصراعاتٍ سياسيـة بين الأمراء ، انتهت بالتسليم للملوك والأمراء بأن يفرضوا على سكان ممالكهم وبلادهم القوانين التي يصدرونها لتُطبَّق على جميع سكان الإقليم أو المملكـة دون تمييز أو استثناء ، ويُعامَل المواطنون بموجبها معاملـة الأتباع الذين لا خيار لهم ، بغض النظر عن انتماءاتهم وأوضاعهم الخاصـة والشخصية .

أما القانون الشخصي أو شخصية القانون فهو القانون الذي يرعى انتماءات أفرادِ رعيـةِ الدولـةِ وخصوصياتهم الشخصية ؛ ما أمكـن ذلك ، فتتعدد في هذا النظام القوانينُ – فيما لا ضرورة ولا مصلحـة في توحيدها – بتعدد الانتماءات والخصوصيات الشخصية والمصالح ، انطلاقًا من مفهوم احترام إنسانية الإنسان وحقوقه وخصوصياتـه الشخصية ؛ ولذلك فإن منطلق شخصية القانون أو القانون الشخصي في مداه وآفاقه ، هو أكثر قابلية للتوافق واحترام حقوق الإنسان وخصوصياته وانتماءاته من منطلق قانون الدولـة أو إقليمية القانون .

ومن مفارقات إقليمية القانون نجد – على سبيل المثال –

أن من الممكن في بعض هذه الدول لو ثبت على المسلم أنه تزوج زواجًا إسلاميًّا شرعيًّا بأكثر من امرأةٍ ، بغض النظر عن أسبابه ، أن يُعَدَّ مخالفًا لقانون الدولة أو قانون الإقليم ، ويكون بذلك معرضًا للعقاب ، بينما لو ثبت أنه أو أي أحدٍ آخر قد اتخذ خليلة ، أو مارس علاقة غير مشروعة ، فإنه لا يُعَدُّ مخالفًا للقانون ، ولا يكون معرضًا للعقوبات .

وأحدث هذه المفارقات لإقليمية القانون ، والذي يوجب على كافة المواطنين طاعة القانون في كل شئونه ، بغض النظر عن الخصوصيات والانتماءات مما يعني في كثير من الحالات عدوان الأغلبية على حقوق الأقليات الشخصية ، ومن هذا ما شرعته أمُّ الحريات الأوربية بشأن حقِّ إظهار بعض الشارات التي تعلن هوية الأشخاص وتظهر انتماءاتهم الدينية فأباحت ارتداء الصليب مادام صغير الحجم ، على الرغم من أن ذلك في حدِّ ذاته يكفي لإعلان الانتماء والهوية المسيحية ولكنها في الوقت نفسه لا تسمح للفتاة المواطنة بارتداء الحجاب في المدارس وفي مؤسسات الدولة لأنه ينمُّ عن الانتماء والهوية الإسلامية ، على الرغم من أن جمهور علماء المسلمين يعدون الحجاب واجبًا دينيًّا ، وبذلك ينكر القانون على المرأة المسلمة المواطنة ، وعلى فئات دينية أخرى غير مسيحية ، حقًّا إنسانيًّا ودينيًّا ، والذي يمثل في الحقيقة اعتداءً على الحرية الشخصية وذلك بعدم

السماح بارتداء ما يعدُّ واجبًا دينيًّا بزعم أن ذلك يفهم منه الانتماء الديني والثقافي ، والذي هو حقٌّ إنساني طبيعي ، ولا يمثل ضررًا ولا عدوانًا على أحدٍ ، على الرغم من أن التشريع قد أباح للمسيحي ارتداء الصليب مادام صغير الحجم ، والذي يعلن ولاشكَّ الهوية المسيحية التي تمثل هوية الأغلبية وموروثها الثقافي .

وعلى عكس مفهوم إقليمية القانون ، فمن الملاحظ هنا ، أنه في ظل مفهوم شخصية القانون ، يتوجب إعطاء كل فئة في هذا النظام حقها في الممارسات التي تتوجب عليها ، أو يرغب فيها أتباعها من أصحاب الانتماءات المختلفة مادام ذلك لا يستتبع ضررًا ولا عدوانًا على أحدٍ .

ومن المفيد الإشارة هنا إلى أن أهم حضارة التزمت مفهوم شخصية القانون هي الحضارة الإسلامية ، من منطلق دين الإسلام في احترام إنسانية الإنسان وحقه في الاختلاف والتمايز والخيار ، وتحقيقًا لمبدأ « العدل » الذي هو أهم مبدأ التزمه الإسلام في التعامل بين بني البشر ، ولأن التمايز والخيار هو جوهر الاستخلاف والأمانة والإعمار الإنساني للأرض ؛ ولذلك كان هو ميزان الحساب والمآل في عالم الروح والحياة الأبدية .

وقد التزمت دول الخلافة الإسلامية وممالكها فيما مضى هذا المبدأ وعُرِفَ هذا المبدأ في الدولة العثمانية التي

هي آخر دول الخلافة الإسلامية باسم « قانون الملة » ، أو « نظام الملة » .

وفي الوقت الذي ينعدم مفهوم شخصية القانون في عالم الحضارة الغربية والدولة القومية ، فإننا ما نزال نرى بعض آثاره الإيجابية في كثيرٍ من الدول القومية الهجينة في العالم الإسلامي ، وخاصة في التشريعات التي تتعلق بأتباع الأديان في هذه الدول ، فيما يسمى « قوانين الأحوال الشخصية » .

وبالله التوفيق والهداية والرشاد

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

رقم الإيداع
٢٠٠٦/٩٣٣٥
الترقيم الدولي I.S.B.N
977-342-382-4

السيرة الذاتية للمؤلف

أ.د. عبد الحميد أحمد أبو سليمان من أبناء مكة المكرمة ١٩٣٦م ، تلقى تعليمه الابتدائي والثانوي في مكة المكرمة ، بكالوريوس وماجستير علوم سياسية من كلية التجارة بجامعة القاهرة ١٩٦٣م ، ودكتوراه في العلاقات الدولية - جامعة بنسلفانيا بالولايات المتحدة الأمريكية ١٩٧٣م ، رئيس قسم العلوم السياسية جامعة الملك سعود (الرياض سابقًا) ، الأمين العام الأول المؤسس للندوة العالمية للشباب الإسلامي بالرياض ١٩٧٣ - ١٩٧٩م ، ومؤسس للحركة الطلابية بالولايات المتحدة وكندا (اتحاد الطلبة المسلمين ، وجمعية علماء الاجتماعيات المسلمين) ، مدير ومؤسس للجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا ١٩٨٨ - ١٩٩٩م ، حاليًا رئيس ومؤسس للمعهد العالمي للفكر الإسلامي (١٩٨١م) .

من مؤلفاته : نظرية الإسلام الاقتصادية : الفلسفة والوسائل المعاصرة ١٩٦٠م ، نظرية العلاقات الدولية في الإسلام ١٩٧٣م ، أزمة العقل المسلم ١٩٨٦م ، ضرب المرأة وسيلة لحل الخلافات الزوجية ! ٢٠٠١م ، العنف وإدارة الصراع في الفكر الإسلامي ٢٠٠٢م ، الإنسان بين شريعتين ٢٠٠٣م ، أزمة الإرادة والوجدان المسلم : البعد الغائب في مشروع إصلاح الأمة ٢٠٠٤م .

(من أجل تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ)

عزيزي القارئ الكريم . .   السلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته . .

نشكر لك اقتناءك كتابنا : « كنوز جزيرة البنائين » ورغبة منا في تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ ، وباعتبار أن رأيك مهمٌّ بالنسبة لنا ، فيسعدنا أن ترسل إلينا دائمًا بملاحظاتك ؛ لكي ندفع بمسيرتنا سويًا إلى الأمام .

*** فهيّا مارس دورك في توجيه دفة النشر باستيفائك للبيانات التالية :-**

الاسم كاملًا : .... الوظيفة : ....

المؤهل الدراسي : .... السن : .... الدولة : ....

المدينة : .... حي : .... شارع : .... ص.ب:...........

هاتف : |_|_|_|_|_|_|_| / |_|_|_|_|_|_|_|_|_|_| : e-mail

- من أين عرفت هذا الكتاب ؟

☐ أثناء زيارة المكتبة ☐ ترشيح من صديق ☐ مقرر ☐ إعلان ☐ معرض

....

- من أين اشتريت الكتاب ؟

اسم المكتبة أو المعرض : .... المدينة .... العنوان ....

....

- ما رأيك في أسلوب الكتاب ؟

☐ عادي ☐ جيد ☐ ممتاز (لطفًا وضح لِمَ) ....

....

- ما رأيك في إخراج الكتاب ؟

☐ عادي ☐ جيد ☐ متميز (لطفًا وضح لِمَ) ....

....

openkanadi.com

- ما رأيك في سعر الكتاب ؟ ☐ رخيص ☐ معقول ☐ مرتفع

(لطفًا اذكر سعر الشراء) ..... العملة .....

- هل صادفت أخطاء طبعية أثناء قراءتك للكتاب ؟

☐ لا يوجد ☐ نادرًا ☐ يوجد أخطاء طبعية

لطفًا حدد موضع الخطأ .....

.....

.....

عزيزي انطلاقًا من أن ملاحظاتك واقتراحاتك سبيلنا للتطوير وباعتبارك من قرائنا فنحن نرحب بملاحظاتك النافعة . . . فلا تتوانَ ودَوِّن ما يجول في خاطرك : -

.....

.....

.....

.....

.....

.....

دعوة : نحن نرحب بكل عمل جاد يخدم العربية وعلومها والتراث وما يتفرع منه ، والكتب المترجمة عن العربية للغات العالمية - الرئيسية منها خاصة - وكذلك كتب الأطفال .

عزيزي القارئ أعد إلينا هذا الحوار المكتوب على

e-mail:info@dar-alsalam.com

أو ص.ب ١٦١ الغورية - القاهرة - جمهورية مصر العربية

لنراسلك ونزودك ببيان الجديد من إصداراتنا

obeikandl.com